الحملات الاستعمارية الأوربية

على الشرق العربي الإسلامي في العصور الوسطى

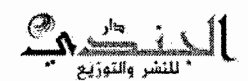
الدكتور
أشرف صالح محمد سيد



الحملات الاستعمارية الأوربية

على الشرق العربي الإسلامي

في العصور الوسطى (بحوث ودراسات)



دار الجندي للنشر والتوزيع – القدس

*

009722340035

Mjundi46@gmail.com

www.for-alquds.org

*

(الحملات الاستعمارية الأوربية)

(أشرف صالح محمد سيد)

*

الطبعة الأولى (2016).

*

الحملات الاستعمارية الأوربية

على الشرق العربي الإسلامي في العصور الوسطى

(بحوث ودراسات)

الدكتور
أشرف صالح محمد سيد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن رشد – هولندا

الطبعة الأولى

2016 م – 1437 هـ



"إن الحروب الصليبية موضوع لا تكفّ الكتب شرقًا وغربًا عن الخوض فيه، كما لا تملّ الصحف العربية على امتداد الوطن العربي والإسلامي من ترديد إثم هذه الحروب، إنها الخطيئة المسيحية في نظرها، وإنها العار الذي لا يُمّحى"

الأنبا يوحنّا قُلته (المشرق - يناير 2002)

الفهرس

فن التفاوض الأيوبي الصليبي

(الموقف الدبلوماسي) (1191–1192)

المقدمة

كان الواقع في القرن الحادي عشر الميلادي مهيأ تمامًا للحركة العسكرية الاستعمارية الخطيرة التي عُرفت باسم "الحروب الصليبية"، فالشرق ممَّزق ضعيف، والغرب ممَّزق ضعيف، وفي خضم هذه الأمواج المتلاطمة شرقًا وغربًا، وانهيار نُظُم الحكم، وضياع الأراضي المقدّسة، ونفوذ رجال الدين، وقدسية البابا في الغرب، وخليفة المسلمين في الشرق، تأتي رسالة البابا أوربان الثاني لتوحد صفوف الغرب وتدعو إلى فرصة بدت سانحة لاستعادة المناطق المسيحية التي استولى عليها العرب.

وعلى مدى ما يقارب قرنين من الزمان، بين الدعوة إلى الحملة الأولى على الشرق (1095م/ 488هـ)، وطرد الصليبيين من عكا آخر معاقلهم في بلاد الشام (1291م/ 690هـ)، قامت ثمان حملات استعمارية كبرى: أربع منها اتجهت إلى الشام، واثنتان إلى مصر، وواحدة احتلت القسطنطينية، وواحدة نزلت في تونس، بالإضافة إلى عدد لا يُحصى من الحملات الصغيرة، فلم تخل سنة واحدة من سيل المسلحين المتدفق إلى الشرق.

يتناول هذا الكتاب عددًا من البحوث والدراسات المتخصصة في تاريخ الحملات الاستعمارية الأوربية على الشرق العربي الإسلامي في العصور الوسطى، فبغض النظر عن أهداف الغزو الظاهرية الدينية والدعوة لإنقاذ القدس من براثن المسلمين، وأن هناك العديد من البواعث الأخرى السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها لهذه الظاهرة التاريخية الفريدة، إلا أن هناك عاملاً أدى دورًا كبيرًا في توجيه الغرب إلى الشرق العربي هو ظاهرة الحج إلى الأراضي المقدسة، لذا تتناول الدراسة الأولى "الشرق العربي في فكر الغرب الأوربي" هذه الظاهرة التي انتشرت بقوة هائلة خلال القرن الحادي عشر، ثم تلقي الضوء على المقدسات المكانية المسيحية في القدس، وأحوال المشرق العربي الإسلامي قبيل الحروب الصليبية.

أما دور وواجبات بيت الرب عصر الحروب الصليبية تتناوله الدراسة الثانية "الكنيسة في مملكة بيت المقدس" من خلال استعراض واجبات الكنيسة في مملكة بيت المقدس اللاتينية منذ قيام المملكة 1099م وحتى استرداد بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي 1187م، وذلك للتعرف على دور الكنيسة وطبيعته، وأهدافه، حتى يمكن تقدير حجمه، ومعرفة أثره، مع تناول التواجد الكنسي اللاتيني في الأرض المقدسة، حيث أن الفترة التي تعرض لها الدراسة تمثل المرحلة الهامة في تاريخ الكنيسة اللاتينية فقد كانت مرحلة خصبة تعددت فيها أعمال وأنشطة وعلاقات الكنيسة.

ومن منطلق أن الأزمات الفكرية نتيجة الصراعات السياسية والحروب قد تقف حائلاً دون عطاء العلماء، تأتي الدراسة الثالثة "الدور المجتمعي للعلماء المسلمين" لتساهم في التعريف بدور هذه الفئة في المجتمع الإسلامي، وإبراز أهميتها وتفاعلها مع الأحداث السياسية والعسكرية خلال الفترة (1079 – 1171م)، والكشف عن مواقفها المؤثرة في مقاومة الغزو، والتي لا تقل شأنًا عن دور القادة العسكريين في الدفاع عن المدن الإسلامية وبث الروح القتالية في الجنود، وإنهاء الانقسامات السياسية، ونبذ الخلافات المذهبية، وتطهير المجتمع الإسلامي من الفساد.

ونظرًا لأن الباحث المتأمل للأوضاع السياسية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي إبان العدوان الصليبي عليها، يظهر له جليًا وجود العديد من العوامل والأسباب السياسية التي جعلت المسلمين يقبلون على إقامة علاقات دبلوماسية مع الصليبيين كلما اقتضت الضرورة ذلك، أو تحقيقًا لمصلحة، وحيث أن المفوضات كان لها بالغ الأثر في تسوية المشاكل والخلافات القائمة، والسعي إلى تهدئة المواقف، والعمل على وضع حد للأزمات والحروب، لذا تتناول الدراسة الرابعة "فن التفاوض الأيوبي الصليبي" إبان الحملة الصليبية الثالثة، وبمعني آخر تلك المفاوضات التي دارت بين السلطان صلاح الدين الأيوبي والملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد لمدة عام كامل (1191-1192م) وكان فارسها العادل الأيوبي.

ويسعدني بعد أن انتهيت من هذا الكتاب بعـون الله وتوفيقـه، أن أقـدم امتنـاني وتقديري إلى الأستاذ الدكتور/ سمير الجندي، أسـتاذ اللغـة العربيـة في جامعـة القـدس، على جهوده المبذولة في دعم الأساتذة والباحثين العـرب، ونـشر إنتـاجهم الفكـري عـبر منارته الثقافية العلمية دار الجندي للنشر والتوزيع– فلسطين.

د. أشرف صالح محمد سيد

مصر الجديدة – القاهرة

آب 2015

الشرق العربي في فكر الغرب الأوربي

إرهاصات الحروب الصليبية

"إن الرغبة في الحج راسخة الجذور في الطبيعة البشرية، فجماعات الناس تُقبل في تلهف إلى تلك الأماكن التي يعتقدون أن الرب أكسب الأرض قداسة فيها"

ستيفن رنسيمان (1903 – 2000)

الشرق العربي في فكر الغرب الأوربي
إرهاصات الحروب الصليبية

مقدمة

تمثل العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب الأوربي جانبًا هامًا في دراسات العصور الوسطى سواء في الشرق أو الغرب، فهي تلقي الضوء على طبيعة ونوعية الصراعات بين قوتين لكل منها تكوينها السياسي والإنساني والحضاري المختلف، وتوضح طبيعة ونوعية الصراعات التي حمل بعضها راية الدين ليغلف أطماعه السياسية، بالإضافة إلى إيضاح الجوانب الحضارية والثقافية ومدى الالتقاء الإنساني والفكري، وتأثير ذلك على فكر وحياة المجتمع لكلا الجانبين[1].

وترجع أهمية تاريخ الحروب الصليبية إلى أنها تمثل تجربة من تجارب العروبة والإسلام سواء في المشرق أو في المغرب، وهي تجربة متعددة الجوانب، خطيرة، مليئة بالدروس والعظات مما يتطلب منا أن نتفحصها ونقلب صفحاتها من وقت لآخر لنستفيد من نتائج أخطاء الماضي، ولنواجه أخطار الحاضر ونتغلب عليها، ولنتفهم أخطار المستقبل ونعمل على تجنبها[2].

لقد أطلق المؤرخون مصطلح "الحروب الصليبية" على تلك الحملات التي شنها الإفرنج في القرون الوسطى على بلاد الشام وفلسطين خلال الفترة (1095-1290)، إلا أن هذا المفهوم يكاد يكون ضيقًا، فالحروب الصليبية أوسع من ذلك وقد سبقت هذه الفترة. الحقيقة أن الحروب الصليبية بدأت منذ فتح المسلمين لجزر المتوسط وبلاد الأندلس.

---

(1) جزء من كلمة تقديم أ. د. زبيدة محمد عطا الله، لكتاب: العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامي.- القاهرة: مكتبة مدبولي، 1989. ص7.

(2) محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية (1095-1291) - الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2000. ص11.

وبهذا المنظور، يمكن تقسيم الحروب الصليبية إلى ثلاثة مراحل، وهي الحروب الصليبية التي شنها النصارى على مسلمي الأندلس، وذلك منذ فتح شبه الجزيرة في القرن الثامن الميلادي إلى غاية استردادها في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي.

ثم الحروب الصليبية التي شنها الإفرنج على البلاد العربية في المشرق وذلك منذ نهاية القرن الحادي عشر الميلادي إلى غاية طردهم منها في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، وأخيرًا الحروب الصليبية التي شنها الأوربيون على البلاد العربية منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي وانتهت باحتلال الأوربيين في القرن التاسع عشر الميلادي لمعظم البلدان العربية والإسلامية في أفريقيا وأسيا(1).

وصفوة القول؛ أن "الصليبيات" من نتاج الغرب الأوربي الذي نضجت فيه فكرة الحرب المقدسة بصورة رشحته ليكون الرحم التاريخي الذي خرجت منه "الصليبيات"، التي اقترنت بأخريات القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري، فإذا أضفنا إلى ذلك ارتباطها بالغفران الكنسي من الآثام والذنوب، أدركنا بالفعل مكان وزمان ميلاد تلك الظاهرة التاريخية الكبرى في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى(2).

لقد كان الصراع الإسلامي - الصليبي صراعًا حضاريًا في جوهره، وسياسيًا وعسكريًا في ظاهره، صراعًا بين حضارتين؛ الحضارة العربية الإسلامية التي كانت لا تزال تحتفظ ببعض مقومات قوتها، والحضارة الأوربية التي انطلقت من عقالها تشق طريقها صوب القوة والتوسع الخارجي في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، فأرادت أوربا الكاثوليكية التوسع الخارجي على حساب القوى العربية الإسلامية المعاصرة التي كانت تعاني وقتئذ من حالة التشرذم السياسي. ونجح الصليبيون في النهاية في تأسيس كيانات صليبية لهم على التراب العربي، وأسسوا مملكة لاتينية في فلسطين وبلاد الشام عاشت

---

(1) محمد عباسة، "الحروب الصليبية ونزعة الحب الكورتوازي".- مجلة إنسانيات، العدد (9)، سنة 1999، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، الجزائر.

(2) محمد مؤنس أحمد عوض، الحروب الصليبية: العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين (12-13م/ 6-7هـ) - ط1.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، 1999. ص32.

قرابة قرنين من الزمان إلى جانب إمارة الرها وأنطاكية وطرابلس[1].

في الحقيقة من المستحيل تفسير الأشياء أو الأحداث مع استبعاد البعد الروحي أو الديني[2]، فلا يمكننا أن نفهم العصور الوسطى أو الحروب الصليبية نفسها إلا من خلال مفاهيم العصر وعقلية البشر في وقت تميز بتضخم الظاهرة الدينية[3]. فقد تمثل هجوم الغرب الأوربي على الشرق الإسلامي في عدة دوافع كان على رأسها الدافع الديني لتحرير البقاع المقدسة من براثن المسلمين.

لقد كانت الحركة الصليبية إفرازًا لأحوال أوربا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية في القرن الحادي عشر، هذه الأحوال كنت بدورها نتاجًا للتفاعلات التي جرت على أرض الواقع الأوربي طيلة العصور الوسطى الباكرة، وإذا كان بعض الباحثين يرى في الحركة الصليبية نتاجًا للتفاعل بين المؤسستين الرئيستين في أوربا العصور الوسطى؛ الكنيسة والإقطاع، فإن هناك روافد جانبية خلقت الأفكار، والقيم، والمثل، والظروف التي جعلت الحركة الصليبية أمرًا واقعًا. ومن أهم روافد هذه الحركة الحج Peregrination إلى الأراضي المقدسة في فلسطين[4].

إن حركة الحج قد هيأت الحروب الصليبية فكريًا وعمليًا؛ فقد اسهمت في تعاظم الأمزجة والميول الدينية الزهدية، وعرفت الأوربيون على الطرق إلى الشرق، وعلى

---

(1) يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين: مملكة بيت المقدس اللاتينية/ ترجمة: عبد الحافظ عبد الخالق البنا.- ط1.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، 2001. (مقدمة المترجم، ص1).

(2) عبد العظيم رمضان، مقال بعنوان "خواطر مؤرخ".- جريدة الجمهورية (القاهرة) - العدد 17553، بتاريخ 18 يناير 2002. ص9.

(3) فطبقًا لأفكار ذلك العصر كانت الحروب الصليبية ليست إلا نوعًا جديدًا من الخلاص وطريقًا جديدًا مؤديًا إلى السماء، لابد من اجتيازه، ابتغاء نيل السعادة التامة، ومن أجل غفران الذنوب. راجع: ارنست باركر، الحروب الصليبية/ ترجمة: السيد الباز العريني.- ط2.- بيروت: دار النهضة العربية، 1967. ص9-10.

(4) قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى: نصوص ووثائق تاريخية.- ط1.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، 2001. ص41.

الوضع في البلدان الشرقية[1].

الجدير بالذكر؛ أن الحج إلى بيت المقدس، في الفترة السابقة على عصر الحروب الصليبية، كان يحظى بتقدير كبير في مجتمعات أوربا الغربية. والراجح أن الحملة الصليبية كانت التطور المنطقي للحج المسيحي إلى فلسطين، إذ لم تكن فكرة الحملة لتطرأ على بال أحد لو لم تكن رحلات الحج الكاثوليكية قد استمرت منذ فترة باكرة وحتى أخريات الزمن الحادي عشر الميلادي.

ذلك أن تيار الحج المستمر كان لابد أن يؤدي بالضرورة إلى فكرة أن الأرض التي شهدت قصة المسيح، وفيها ضريحه، لابد من أن تكون تحت سيطرة أتباعه. ولم يكن السبب هو الرغبة في حل المشكلات والصعوبات العملية التي كانت تواجه الحجاج الكاثوليك، ولكن لأن أوربا التي بدأت تشعر بقوتها رفضت بقاء أرض المسيح بأيدي المسلمين الذين صورتهم الدعاية الكنسية في صورة الكفار المتوحشين[2].

وكانت الفكرة التي ملكت عقول أبناء الغرب الأوربي في أخريات القرن الحادي عشر الميلادي، وهي فكرة تخليص الأرض المقدسة من المسلمين. وقد أدى هذا بالضرورة إلى بروز أهمية القيام بحملة حج مسلحة (وهي الحملة الصليبية) لتحقيق هذا الهدف[3]. كما أن الحملة كانت خير فرصة للخلاص في الدنيا والثواب في الآخرة[4].

والحق أن المسيحيين عاشوا في كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة يباشرون طقوسهم ويتمتعون بحقوقهم كاملة، وإذا كانت هناك إشارات في كتب التاريخ لقيام

---

(1) ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق/ ترجمة: إلياس شاهين.- موسكو: دار التقدم، 1986. ص24.

(2) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية.- الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مايو 1990. ص22 (سلسلة عالم المعرفة، 149).

(3) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص22-23.

(4) أنتوني ويست، الحروب الصليبية/ ترجمة: شكري محمود نديم.- بغداد: شركة النبراس للنشر والتوزيع، 1967. ص24-25.

بعض الحكام باضطهاد أهل الذمة؛ فإننا يجب أن نذكر دائمًا أن هذه الحالات فردية ومؤقتة وتعد خروجًا على المبدأ العام الذي سارت عليه الدولة الإسلامية منذ قيامها. فقد كتب بطرك بيت المقدس في القرن التاسع رسالة خاصة سرية إلى زميله بطرك القسطنطينية، جاء فيها بالنص القطعي "إن المسلمين قوم عادلون، ونحن لا نلقى منهم أي أذى أو تعنت"، ويعلق أحد الكتاب الغربيين على ذلك بقوله: "إن الحق يتطلب منا أن نعترف بأن المسيحيين عاشوا في كنف الدولة الإسلامية، أسعد حالاً بكثير مما كانت عليه الطوائف المسيحية التي عاشت في كنف الدولة البيزنطية ذاتها"[1].

ويذكر أحد كبار المؤرخين الأوربيين، أن حالات الاضطهاد الفردية التي تعرض لها المسيحيون في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن العاشر بالذات، لا يصح أن تتخذ بأي حال من الأحوال سببًا حقيقيًا للحركة الصليبية، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية في ظل الحكم الإسلامي[2].

1- حركة الحج المسيحي إلى فلسطين من القرن الرابع إلى القرن الحادي عشر الميلادي:[3]

إن الرغبة في الحج راسخة الجذور في الطبيعة البشرية، فوقوف المرء في نفس الموقع الذي وقف فيه مَنْ يجلهم ذات مرة، ومشاهدة نفس الأماكن التي ولدوا وكافحوا وماتوا فيها، يبعث في المرء شعورًا بالاتصال الروحي بهم، وفي ذلك تعبير عملي عما يشعر به نحوهم من تبجيل، فجماعات الناس تُقبل في تلهف إلى تلك الأماكن التي يعتقدون أن

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية.- القاهرة: دار القلم، 1964. ص16-17.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى.- القاهرة: دار النهضة العربية، 1991. ص20.

(3) أشرف صالح محمد سيد، مقال بعنوان "حركة الحج المسيحي إلى فلسطين: من القرن الرابع إلى القرن الحادي عشر الميلادي"، الفسطاط: المجلة التاريخية – الولايات المتحدة (www.fustat.com) – عدد أيلول وتشرين الأول 2007.

الرب أكسب الأرض قداسة فيها[1]. فقد تطور الحج المسيحي من ممارسة فردية بفعل الشوق والحنين إلى الأرض التي شهدت خطوات المسيح إلى ممارسة تكفيرية تباركها الكنيسة وتنظمها لأولئك الْخُطَاةَ الراغبين في التوبة[2].

الواقع أن؛ المسيحية لا تحتوي ضمن أركانها المعروفة في صورة التثليث: التجسد، والصلب، والقيامة، على فكرة الحج[3]، ولا توجد أدنى إشارة في العهد الجديد لأمر الحج إلى القدس[4].

ومع ذلك فقد شعر المسيحيون منذ وقت مبكر بالرغبة القوية في أن يروا بأنفسهم تلك المواقع التي تنقل فيها الأنبياء والقديسين للتبشير بالدين الجديد. وقد قام الحج إلى بيت المقدس بدور كبير في حياة مسيحي الغرب منذ أزمان بعيدة ولم يقف بعد المسافة بين الأقطار وبين بيت المقدس حائلاً دون القيام به، بل كلما زادت الشقة (المسافة) بعدًا أمام الحاج، وكلما زاد الطريق مشقة، زادت النفس اطمئنانًا إلى غفران الخطايا ومحو الآثام. ولم يتوقف الحج عند فترة معينة من التاريخ بل استمر متواصلاً طيلة العصور المختلفة، واشتدت حركته عقب تشييد كنيسة القيامة[5].

كان الحج نادرًا في أيام المسيحية الأولى وكان الفكر المسيحي يتجه إلى تأكيد ألوهية المسيح وعموميته أكثر مما يؤكد بشريته، وكانت السلطات الرومانية لا تشجع الارتحال إلى فلسطين.

---

(1) ستيفن رنسيمان، الحملات الصليبية من كليرمونت إلى أورشليم/ ترجمة: نور الدين خليل.- القاهرة، 1994. (ج1، ص67).

(2) قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى، ص41-42.

(3) محمد مؤنس أحمد عوض، الحروب الصليبية، ص14.

(4) محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1187) - ط1.- القاهرة: مكتبة مدبولي، 1997. ص17.

(5) عليه عبد السميع الجنزوري، الحروب الصليبية: المقدمات السياسية.- ط1.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999. ص249. يذكر روسيه؛ أن الرغبة الشديدة لهؤلاء الصليبيين في الذهاب إلى فلسطين لم تكن لأهميتها الجغرافية، أو الاستراتيجية، بل لأنها المكان الأعلى الذي يناديهم منه الله.

الملاحظ أنه خلال القرنيين الأولين للميلاد لم يكن أمر الترحال بهدف الحج إلى المدينة المقدسة أمرًا ميسورًا[1]، فالمدينة (القدس) لم تكن سوى أطلال بعد أن دمرها تيتوس (39-81م) Titus سنة 70م[2].

وقد بقيت كذلك إلى أن أعاد الإمبراطور هادريان (76-138م) Hadrian بناءها فأصبحت تسمى مدينة "إيليا" الرومانية Aleia Capitolina[3].

غير أن المسيحيين كانوا يتذكرون المكان الذي وقعت فيه أحداث حياة المسيح، وبلغ احترامهم لموقع "كالفاري" Calvary حدًا جعل هادريان يعمد إلى إقامة معبد لفينوس كابيتولينا هناك Venus Capitolina[4].

وقد عرف مسيحيو القرن الثالث الكهف الذي ولد فيه المسيح في بيت لحم معرفةً جيدة وراح المسيحيون يرتحلون إلى هناك وإلى جبل الزيتون. وكان الهدف من زيارة هذه

---

(1) محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوربيون، ص17.

(2) دخلت جيوش تيتوس المدينة المقدسة في سبتمبر من سنة 70م، وأضرمت النار فيها، وهدم المعبد المزخرف الذي بناه "هيرودوس الكبير" - ملك اليهودية- وأشعلت النار في قدس الأقداس، وخيم الخراب على أورشليم، وهدم كل شيء فيها، وصدق فيها قول المسيح (عليه السلام): يَا أُورُشَلِيمُ يَا أُورُشَلِيمُ يَا قَاتِلَةَ الأَنْبِيَاءِ وَرَاجِمَةَ الْمُرْسَلِينَ إِلَيْهَا كَمْ مَرَّةٍ أَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ أَوْلاَدَكِ كَمَا تَجْمَعُ الدَّجَاجَةُ فِرَاخَهَا تَحْتَ جَنَاحَيْهَا وَلَمْ تُرِيدُوا.. هُوَذَا بَيْتُكُمْ يُتْرَكُ لَكُمْ خَرَاباً. راجع:

سيد أحمد علي الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري.- ط3.- القاهرة: دار النهضة العربية، 1996. ص213. مصطفى كمال عبد العليم، محاضرات في تاريخ الإمبراطورية الرومانية.- القاهرة: كلية الآداب (جامعة عين شمس)، 1998. ص66. محمد بيومي مهران، بنو إسرائيل.- الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1999. (ج2، ص 1020-1021).

(3) راجع: مصطفى كمال عبد العليم، اليهود في مصر في عصري البطالمة والرومان.- القاهرة: د.ن، 1968. ص195-196.

(4) ستيفن رنسيمان، الحملات الصليبية من كليرمونت إلى أورشليم/ ترجمة: نور الدين خليل.- القاهرة، 1994. (ج1، ص67). يُذكر أن هادريان حاول أن يحمي هذا الأثر المقدس فعمد إلى ردم القبر والجلجثة.

البقع المقدسة هو الصلاة واكتساب الفضائل الروحية[1]، إلا أن التطور البارز في فكرة الحج في المسيحية حدث في عهد قسطنطين (275-337م) Constantius - أول الأباطرة المسيحيين في أوائل القرن الرابع الميلادي - الذي أوقف الاضطهاد الذي لحق بالمسيحية، وعمل على إتباع سياسة متوازنة تجاه القوى الدينية المختلفة في الإمبراطورية الرومانية[2].

ونجد أن أمه الإمبراطورة هيلانة (هيلينا) Helena انطلقت إلى فلسطين من أجل الكشف عن رفات السيد المسيح والحصول على كافة متعلقاته، ويذكر المؤرخ الصليبي ستيفن رنسيمان Steven Runciman أنها :"من انجح علماء الآثار العظام في العالم وأرفعهم شأنًا"[3].

فقد قامت بالعثور على خشبة الصلب[4]، ودعم أبنها الإمبراطور اكتشافها ببناء كنيسة القبر المقدس هناك، ومنذ ذلك الحين؛ صار الحج إلى تلك البقاع تقليدًا قائمًا لدى

---

(1) ستيفن رنسيمان، الحملات الصليبية، (ج1، ص67-68).

(2) عن قسطنطين الإمبراطور المسيحي، راجع: نورمان ف. كانتور، التاريخ الوسيط: قصة حضارة البداية والنهاية.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، 2009. ص62-72.

Cockrane (Charles Norris), Christianity and Classical Culture.- Oxford, 1940. P. 216.

(3) ستيفن رنسيمان، الحملات الصليبية، (ج1، ص68).

(4) فقد أغرت أحد اليهود المسنين بالذهب لإرشادها عن مكان الصليب، ويذكر التقليد أنها تمكنت من إزالة الردم، فوجدت ثلاث صلبان، وكان من بينها صليب المسيح وصليبا اللصين الذين صُلبا معه، وحينما وضعت أحد الصلبان الثلاثة على أحد الموتى قام، فأدركت أنه صليب المسيح. عن حقيقة قصة الصلب، راجع: أحمد شلبي، مقارنة الأديان.- ط1.- القاهرة: مكتبة النهضة، 1993. (ج2، المسيحية، ص143). وعن فكرة الصلب بين الحقيقة والخيال، راجع: عبد الفتاح حسن الزيات، ماذا تعرف عن المسيحية.- ط3.- ب.م: مركز الراية للنشر، 2001. ص128. وعن تقديس الصليب، راجع: محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية تبحث في الأدوار التي مرت عليها عقائد النصارى وفي كتبهم وفي مجامعهم المقدسة وفرقهم.- ط3.- القاهرة: دار الفكر العربي، 1961. ص101. وتحتفل الكنيسة المقدسة في الرابع عشر من شهر أيلول (سبتمبر) من كل عام بعيد ارتفاع الصليب المقدس، ويرتبط هذا العيد بحادثة صلب وموت السيد المسيح على جبل الجلجلة.

المسيحيين. وبدأ على الفور تيار من الحجاج يتدفق إلى المكان الذي بذلت فيه هيلانة جهودها. فقد اعتقد الناس أن زيارة هذه الأماكن سوف يخلصهم من الخطايا والآثام والأمراض، ولهذا سوف يرتك الحاج بلاده ويقطع تلك المسافات الشاسعة من أجل الحصول على الغفران، فما قيمة التعب الذي يصادفه الحاج، أليس المسيح هو القائل: "هذَا الْمَرَضُ لَيْسَ لِلْمَوْتِ، بَلْ لأَجْلِ مَجْدِ اللهِ" (إنجيل يوحنا 11: 4).

إذن لا محل للشكوى من أهوال الطريق وما يصادفه الحاج المسيحي من متاعب جثمانيه مظهرها الجوع، والظمأ، وتشقق الأيدي والأقدام، والعري أحيانًا، والسير في حمارة القيظ (شدة الحرارة)، أو تحت زمهرير الشتاء (شدة البرودة)، فكل هذه المتاعب ليست إلا تمجيدًا للرب وللعقيدة الدينة الخالصة، وهذا هو إيمان المسيحي الماضي إلى فلسطين، حيث يعد تعفير قدميه في تراب البقعة التي شهدت مولد المسيح، وتكريزه، وآلامه في سبيل الإنسانية راحة نفسية عميقة تصاحبه دنياه، وزادًا يتقوت به في آخراه[1].

وفي الحقيقة؛ لا نستطيع أن نعرف أعداد هؤلاء الحجاج لأنهم لم يدونوا في الغالب شيئًا عن رحلاتهم، غير أنه في سنة 333م جاء أحد المسافرين من ميناء بوردو Bordeaux الفرنسي إلى فلسطين ودون شيئًا عن رحلته[2].

وبعد حوالي خمسين عامًا كتبت سيدة لا يتطرق الكلل لقلبها تُدعى اثيريا Aetheria وأحيانًا أخرى القديسة سيلفيا St. Silvia قديسة إقليم كتيان الفرنسي وصفًا لرحلة قامت بها اشتملت زيارة مصر وطور سيناء[3]. ويعكس هذا الأمر دور المرأة في

---

(1) حسن حبشي، الحرب الصليبية الأولى.- ط1.- القاهرة: دار الفكر العربي، 1958. ص20.

(2) See: Itinerary from Bordeaux to Jerusalem/ 'the Bordeaux pilgrim' (333 A.D.); translated by Aubrey Stewart and annotated by Sir C.W. Wilson. London: Palestine Pilgrims' Text Society, 1896. 68 pages .

(3) Steven Runciman "The Pilgrimages to Palestine before 1095." In A History of the Crusades (Editor in Chief, Kenneth Meyer Setton) Vol. I The First Hundred Years. Edited by Marshall W. Baldwin 68-80 Madison: University of Wisconsin Press, 1969-89. P. 69 .

حركة تاريخ العصور الوسطى، كما يوضح أن الحج لم يكن قاصر على الرجال، وأن الحاج كان يتحرق شوقًا لرؤية أكبر عدد ممكن من الأماكن في فلسطين، ثم يتجه بعدها لزيارة مصر كونها مرتبطة برحلة العائلة المقدسة[1].

ومع نهاية المائة الثالثة للمسيح غدت الديانة المسيحية بأتباعها داخل الإمبراطورية الرومانية بقوة ليس فقط لا يمكن قمعها، بل لا يجوز تجاهلها والاستهانة بها، وقد دفع هذا العديد من الساسة الرومان إلى إعادة النظر في مواقفهم منها ومن أتباعها، وخاصةً أيام الأزمات الداخلية والحروب الأهلية[2].

وعند اقتراب نهاية القرن الرابع استقر في فلسطين واحد من عظماء آباء العالم المسيحي اللاتيني، وهو القديس جيروم St. Jerome[3]، وجذب إليه جماعة من نساء الطبقة الراقية ذوات الثراء اللائي كن يتلقين العلم عنه في إيطاليا[4].

---

(1) رحلة العائلة المقدسة (المسيح وهو طفل، وأمه السيدة مريم العذراء، ويوسف النجار): خرجت مريم وطفلها الرضيع تسلك طرقًا موحشة ودروبًا وعرة عبر الجبال والصحراء حتى تجاوزت الحدود الفلسطينية (الآن)، ووصلت إلى سيناء المصرية، ثم واصلت العائلة رحلة اللجوء عبر سيناء لداخل مصر في موضع شجرة العذراء (لازالت موجودة في منطقة المطرية وعمرها يزيد عن 1000عام وهي دائمة الخضرة). ثم إلى نقطة على شاطئ النيل في مصر القديمة، وهي موضع الكنيسة المعلقة الآن، ثم أخذت العائلة المقدسة مركب شراعي في النيل واتجهت جنوبًا حتى المنيا، ثم واصلت العائلة رحلتها إلى مدينة أسيوط، حيث استقرت هناك في المكان الذي أقيم فيه فيما بعد ذلك دير المحرق.

(2) وليم الصوري، تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار/ ترجمة: سهيل ذكار.- ط1.- دمشق: دار الفكر، 1999. (مقدمة المترجم، ص13).

(3) القديس جيروم من أكثر آباء الكنيسة تعليمًا وثقافة. درس في روما مدة 18 عامًا، وفي سنة 374م اتجه إلى بلاد الشام وعاش بين جموع الرهبان والمتنسكين. راجع:

JND Kelly, Jerome: His Life, Writings, and Controversies, New York: Harper & Row, 1975. pp. 13–14. Walsh, Michael, ed., Butler's Lives of the Saints, New York: HarperCollins, 1991. P. 307.

(4) وهذا دليل على أن الطبقات العليا التي معها إمكانيات السفر والحج استحوذت عليها العاطفة

كان يستقبل في صومعته في بيت لحم موكبًا لا ينقطع من الزوار الذين كانوا يفدون إليه معبرين عن احترامهم بعد مشاهدة الأماكن المقدسة[1]. وعلى الرغم من أن القديس جيروم لم يقر بأن للإقامة في بيت المقدس قيمة روحية، إلا أنه أعتبر أن من الدين التعبد في الموضع الذي وطأته قدما المسيح[2]. ولقد لقي رأيه من الذيوع والقبول ما لم يلقه رأي القديس أوغسطين St. Augustine[3].

على أن جيروم نفسه أوصى صديقه ديزيدروس Desiderius بزيارة الأماكن المقدسة وذلك في الرسالة التي وجهها إليه، ويشرح جيروم بأنه بفضل زيارته ازداد فهمه للأناجيل. غير أنه في نوبة غضب – كما يظهر في رسالة أخرى – أشار إلى أنه ما من ثمة خسارة إذا لم تجر زيارة بيت المقدس[4]. ويقال أنه في مطلع القرن التالي بلغ عدد الأديرة[5] والنُّزُل التي شُيدت في القدس أو حولها لاستقبال الحجاج مائتين تخضع كلها تقريبًا لرعاية الإمبراطور[6].

الدينية، ولم تلهي الدنيا هذه الطبقة الأرستقراطية عن الورع والتمسك بالدين.

(1) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية: الأيديولوجية، الدوافع، النتائج.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، 1993. ص24.

(2) ستيفن رنسيمان، الحملات الصليبية، (ج1، ص69).

(3) فقد رأى أن رحلات الحج لا تنطوي على الإيمان، وليست عمل قيم، وحتى أنها خطيرة، فالحاج ممكن أن يذهب لمناطق ذات خطورة، وبها لصوص وقطاع طرق يسرقون أشياءه وقد يقتلوه. راجع: علي زيعور، أوغسطينوس.- ط1.- الدار البيضاء: دار إقرأ، 1983. ص95–117.

(4) Steven Runciman "The Pilgrimages to Palestine before 1095." In A History of the Crusades (Editor in Chief, Kenneth Meyer Setton) Vol. I The First Hundred Years. Edited by Marshall W. Baldwin 68-80 Madison: University of Wisconsin Press, 1969-89. P. 69 .

(5) الدير: بيت يتعبد فيه الرهبان والراهبات، ويوجد في الصحاري وعلى رؤوس الجبال، فإذا كان الحضر كانت كنيسة (أو بيعة). وأصله الدار والجمع أديار. ومن الممكن أن يصير الدير مأوى للمسافرين وعابري السبيل، إلا أن الهدف الأساسي من قيام الدير هو الانقطاع للعبادة وخدمة الدين.

(6) ستيفن رنسيمان، الحملات الصليبية، (ج1، ص69).

وتجدر الإشارة إلى؛ أنه كان للحج في العصور الوسطى تقاليده الخاصة به، لاسيما في الغرب، إذ يتحتم على الراغب في الحج أن يستأذن الأسقف ويتناول منه عصا الحج ومزودًا، يستوي في ذلك الغني والفقير. وأما العصى فتكاد تبلغ طول الحاج، وفي وسطها عقدة، وقد تزداد أخرى في أعلاها، وكثيرًا ما يعقد هذا الطرف على شكل صليب، وأما المزود فيعلق برباط، ويزود الحاج بكتب توصية بجميع الأديرة التي يمر بها.

وكان الحجاج إذا بلغوا حدود بيت المقدس دفعوا للمسلمين رسم الدخول عند باب يُعرف ب باب الحج، وحينذاك يؤذن لهم بالتجول وأداء مناسك الحج، ومعنى هذا أن أبواب المدينة لا تفتح على الأكثر إلا للأغنياء أو مَن في حكمهم، ويعرج الحاج بعدئذ على كنيسة القيامة والضريح، ويصعد جبل الزيتون ويمضي إلى مغارة بيت لحم، ثم يستحم بماء الأردن، ويأخذ بعض سعف النخل ويحمله معه إلى بلده، حيث يضعه على مذبح الكنيسة[1].

وشهد منتصف القرن الخامس ذروة هذا الإقبال المبكر على القدس. واستقرت هناك الإمبراطورة إيودوسيا Eudocia – ابنة فيلسوف وثني أثيني – بعد حياة تعسة في البلاط وجاء في ركابها كثيرون من الأرستقراطيين البيزنطيين الورعين. وفي الوقت الذي أخذ الناس فيه يكتبون التراتيم كانت هذه الإمبراطورة ترعى الاتجاه إلى جمع الآثار الدينية، التي بدأت في وضع مجموعة منها في القسطنطينية بأن أرسلت إلى هناك لوحة السيدة العذراء التي رسمها القديس لوقا. وقد حذا حذوها حجاج من الغرب ومن القسطنطينية، وبدأ بذلك انتقال بدائع التحف الدينية من الشرق إلى الغرب بعد أن كانت متطلبات الترف المادي في العالم هي التي تأتي من الشرق منذ أقدم العصور[2].

ومن الملاحظ؛ أن الإمبراطورة استقرت في بيت المقدس وهذا دليل على ظهور تقليعة جديدة وهي الاستقرار في بيت المقدس بجوار الأماكن المقدسة في بيت لحم وغيرها

(1) يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص239. حسن حبشي، الحرب الصليبية، ص21-22.

(2) ستيفن رنسيمان، الحملات الصليبية، (ج1، ص69-70).

من المدن المليئة بالمزارات الدينية والأضرحة. ومن ناحية أخرى؛ أن الظاهرة الجديدة الـتي بدأتها الإمبراطورة بتأليف جماعة مجمع الآثار ما لبثت هـذه الجماعـات أن صـارت عـادة محببة، وأسست آلاف الكنائس في أوربا الغربية، وأصبحت مكرسة للآثار الـتي أحـضرها الحجاج من الشرق. وعلى ذلك، نُهبت كنائس القدس ونهبت الآثـار الـتي كانـت بعيـدة قطعة بعد قطعة على مر القرون[1].

وقد كان هناك ميل متزايد لتبجيل القديسين، وكان التقاة يقولون أن العون الإلهـي يمكن أن يُستمد من قبورهم وإن أجسادهم قادرة على أن تأتي بالمعجزات. وبدأ الرجـال والنساء في قطع مسافات طويلة ليروا أثرًا مقدسًا، وجاوزا ذلك إلى محاولة الحصول علـى واحد من تلك الآثار لينقلوه إلى موطنهم ويضعوه في كنيـستهم داخـل خزانـات خاصـة. لقد كان هناك ثمة اعتقاد بأن قطع الجلد تلك وقطع العظم ستتجمع مرة ثانية يوم القيامة للمشاركة في النعيم عندما تتجلى الذات الإلهية ويبعث الله مَن في القبور[2].

وقد ساعدت التجارة، التي كانت ما تزال قائمة على شواطئ البحر المتوسط علـى الترابط بين الشرق والغرب، وإن كانت قد أخذت في الاضمحلال نتيجة للفقر الذي بـدأ يتزايد في الغرب، فكانت تنقطع بين الحين والآخر كما هو الحال عنـدما أحـال القراصـنة الوندال Vandals البحار في منتصف القرن الخامس إلى منـاطق غـير آمنـة لا يـستطيع أن يجوبها التجار غير المسلحين[3]. .

وفي القرن السادس الميلادي، ازدهرت حركة الحج، وهناك مدونات كتبها حجـاج

---

(1) عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب/ ترجمة: فيليب صابر سيف.- ط2.- القاهرة: دار الثقافة، 1990. ص29.

(2) جوناثان ريلى- سميث، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية/ ترجمة: محمد فتحي الشاعر، القاهرة، 1993. ص17– 18. وعن ثقافة الرفات المقدسة، راجع:

Jonathan Sumption, The Age of Pilgrimage: The Medieval Journey to God.- Paulist Press, 2003. pp. 21-50 .

(3) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية/ ترجمة: السيد الباز العريني.- ط3.- القاهرة: د.ن، 1993. (الحروب الصليبية وقيام مملكة بيت المقدس، ص78).

غربيون ارتحلوا شرقًا في سفن تجارية سورية أو يونانية. وكان التجار ينقلون الأخبار والقصص الديني عند نقلهم المسافرين والبضائع. كما تم تأليف كتاب مرشد أو دليل لبيت المقدس The Breviarus of Jerusalem ليكون دليلاً للحج خلال القرن السادس. ومن المفترض أن هذه المؤلفات وزعت في الغرب الأوربي وفي الأماكن المقدسة على المسافرين من الحجاج، نظرًا لكونهم مقبلين على زيارة أماكن جديدة بالنسبة لهم ولم يألفوها من قبل[1].

وقد حدثت حركة الفتوحات العربية الكبرى في القرن السابع الميلادي، ودخلت الشام بما فيها فلسطين تحت السيادة العربية الإسلامية، وبصفة عامة اتسمت سياسية المسلمين تجاه الأماكن المقدسة لدى المسيحيين بالتسامح الديني، ولم تتسم بالتعصب[2].

والجدير بالذكر؛ أن التجار السوريون لم يعد يأتون إلى الشواطئ الفرنسية والإيطالية ومعهم البضائع والأخبار، وظهر القراصنة مرة أخرى في البحر المتوسط، وكان الحكام المسلمون يرتابون في المسافرين المسيحيين القادمين من الخارج. وكانت الرحلة شاقة وباهظة التكاليف بعد أن تضاءلت الثروة في الغرب المسيحي، بيد أن الصلة لم تنقطع تمامًا.

فكان المسيحيون الغربيون ما يزالون يفكرون في الأماكن المقدسة في الشرق بتعاطف وحنين. وإذا كنا نعرف أسماء بعض الحجاج الذين ينتمون إلى ذلك العصر فإن أقاصيصهم تبين أن المغامرين وغير المرفهين من الناس هم وحدهم الذين كانوا يحدوهم الأمل في بلوغ القدس، وأن النساء فيما يبدو لم يكن يجازفن بالحج[3].

وخلال القرن الثامن الميلادي، زاد عدد الحجاج، فالحج المسيحي إلى الأراضي المقدسة في فلسطين شهد عند نهاية هذا القرن ازدهارًا من خلال توطد العلاقات بين

---

(1) قاسم عبده قاسم، الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية: دراسة عن الحملة الأولى (1095-1099م) - ط1.- الجيزة: عين للبحوث والدراسات، 1999. ص30.

(2) محمد مؤنس أحمد عوض، الحروب الصليبية، ص16.

(3) ستيفن رانسيمان، الحملات الصليبية، (ج1، ص71-72).

الدولة العباسية والإمبراطورية الكارولنجية خاصةً خلال عهد هارون الرشيد[1].

ومن الأمور ذات الدلالة أننا لدينا وثيقة تاريخية تدل على مدى تسامح المسلمين تجاه قضية الحج المسيحي، والوثيقة تُعرف باسم " مفكرة بكنائس بيت المقدس" وتحتوي حصرًا لكنائس وأديرة المدينة والمناطق المجاورة لها، وكذلك أسماء الشمامسة، والأساقفة، والرهبان الذين يقومون بالخدمة في تلك المؤسسات الدينية المسيحية.

وهناك مَنْ يرى أن تلك الوثيقة قد كُتبت في ظل العلاقات الودية بين الخلافة العباسية والإمبراطورية الكارولنجية، وأنه من المستحيل إنجاز ذلك العمل الكبير الدقيق أو الطابع الإحصائي دون أن يكون ذلك من خلال موافقة رسمية، وقيمة الوثيقة أنها توضح أن المؤسسات المسيحية في فلسطين كانت تعيش مرحلة مهمة من الازدهار حينذاك[2].

ويذكر رنسيمان" أنه خلال تلك العلاقات الحسنة بين شارل العظيم (Charlemagne, 768-814م) والخليفة هارون الرشيد (170-193هـ/ 786-808م) لابد وأن يكون عدد كبير من الحجاج قد وصل إلى القدس من بينهم بعض النساء "[3].

وفي غضون القرن التاسع الميلادي كانت المنشآت التي أنشأها شارلمان في فلسطين لا تزال في حالة تسمح لها بالعمل غير أنها خاوية وآخذه في الانهيار[4]. وفي غرب أوربا في هذا القرن زاد التحمس لعادة جمع الرفات والذخائر المقدسة، لأن المشرعين الكنسيين كانوا قد أعلنوا ضرورة احتواء كل المذابح الكنسية على جزء من رفات القديسين، هذا

---

(1) محمد حلمي محمد أحمد، مصر والشام والصليبيون.- ط2.- القاهرة: دار الثقافة العربية، 1982. ص45-46.

(2) John Wilkinson, Jerusalem Pilgrims Before the Crusades.-Warminster: Aris and Philips, 1977. P.12.

(3) عباس عاجل جاسم الحيدري، سمير صالح حسن العمر، "الحروب الصليبية: تطور المصطلح والمفهوم".- مجلة جامعة بابل للعلوم الصرفة والانسانية.- المجلد: (19)، الاصدار: (4)، 2011. ص686.

(4) ستيفن رانسيمان، الحملات الصليبية، (ج1، ص72-73).

إلى جانب هواة جمع الرفات الذين تميزوا بالجشع وتكديس مجموعات كبيرة في الكنائس والأديرة الكارولنجية[1].

ومع بداية القرن العاشر الميلادي بدأ العصر العظيم للحج، وكان لتحسن ظروف الحج أثاره على الفكر الديني الغربي، إلا أننا لا نعرف على وجه الدقة التاريخ الذي قضى فيه القانون الكنسي لأول مرة بجعل الحج كفارة، وهو ما يُعرف بـ"الحج التكفيري" الذي يقوم به الشخص الذي يرتكب جرمًا فيبعد بذلك فترة عن المكان الذي أرتكب فيه جريمته.

فقد كانت رحلة الحج بمثابة جزء من التعويض الذي يقدمه عن الجريمة التي ارتكبها ومن أجل إنقاذ روحه[2]. ولم تصبح فكرة الغفران فعالة حقًا إلا بعد أن ارتبطت بفكرة الحج إلى القدس[3].

ومن الملاحظ أنه؛ في القرن العاشر حدثت تطورات فعالة في أوربا إذ أن حركة دير كلوني الذي ظهر سنة 910م وأسس في فرنسا على يد "وليم التقي"[4] قامت بإصلاح أوضاع الأديرة في أوربا وأحدثت نهضة دينية كبيرة، عملت على ازدهار حركة الحج، وإقامة شبكة كبيرة تهتم بأمور الحجاج وشئونهم، وسعت إلى عرض كافة التيسيرات اللازمة من أجل توفير ما يلزم الحجاج من احتياجات مختلفة[5].

---

(1) جوناثان ريلى- سميث، الحملة الصليبية، ص30.

(2) يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص234.

(3) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص27.

(4) وقد ظهرت حركة الإصلاح الكلوني أو "الإصلاح من داخل الأديرة" في حوض الراين الأعلى، حيث أسس "وليم كونت أوفرن" ديرًا جديدًا في "كلوني" (سنة 910م)، وقد عمد زعماء الحركة إلى الفصل بين الكنيسة والدولة أي الفصل بين السلطتين الدينية والدنيوية، وإصلاح الحياة الديرية بل إصلاح الكنيسة إصلاحًا شاملاً. راجع: أشرف صالح محمد سيد، قراءة في تاريخ وحضارة أوربا العصور الوسطى/ تقديم: فتحي عبد العزيز محمد.- ط2.- القاهرة، 2011. ص61-74.

(5) وعن تأثير دير كلوني في أوربا، والدور الديني والفكري له، ودوره في الدعوة للحروب الصليبية. راجع هذه الدراسة الممتازة: محمود علي عبد الله علي، دير كلوني ودوره في الحروب الصليبية/

وتردد القول خلال هذا القرن بأن معجزات الرفات المقدسة هي التي عملت على حماية الممتلكات والحقوق الإقليمية للكنائس والأديرة التي ترقد بها تلك الرفات[1].

وفي أواخر هذا القرن شهدت أرض فلسطين حجاجًا لم يقدر لها أن تشهد مثلهم قط، ذلك لأن الاعتقاد ساد يوم ذاك بأن نهاية العالم قد دنت، وأن العصر الألفي قد أزف وأن المسيح سيظهر للمؤمنين على رأس الألف من السنين التي غبرت[2]، وبهذا الاعتقاد شرعت الجموع الغفيرة في التدفق على الأرض المقدسة من العالم اللاتيني. عندئذ لم تقف رغبة الحجاج عند الزيارة فحسب، بل أراد بعضهم البقاء في فلسطين حتى يوافيه الأجل واستولت على الناس صوفية عميقة.

ويقال أن أحد الحجاج استلقى على الصليب هاتفًا: "أيها السيد المسيح، يا مَن تفضلت بالنزول عن عرش جلالك إلى الأرض لخلاص الجنس البشري، ويا مَن ارتفعت

إشراف: إمام الشافعي محمد حمودي سليمان.- أسيوط: كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر، 2012. (أطروحة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ والحضارة).

(1) جوناثان ريلى- سميث، الحملة الصليبية، ص31.

وتجدر الإشارة إلى؛ أنه في أواخر القرن الحادي عشر تحول العمل الدفاعي للرفات المقدسة إلى منح الشفاء من المرض لحراسة الأضرحة أو زوارها. غير أنه من المهم بمكان التأكيد على الطبيعة الانتقامية والمدافعة عن تلك العجائب المرتبطة بمراكز العبادة، والتي لم تكن قاصرة على التعبير عن آمال الأتقياء، ولكن جعلتهم يتشربون فكرة القوة الخارقة التي تتمتع بها الأماكن المقدسة أيضًا. كما ساعدت المشاعر المتزايدة تجاه تبجيل وتوقير رفات القديسين على تفسير الإجراءات غير العادية التي تمثلت في سرقات رفات القديسين التي يمكن تبريرها إذا ما تمت بنجاح وفقًا للاعتقاد بأن القديس الذي سُرقت رفاته إنما هو الذي أراد أن تنقل رفاته إلى مكان جديد، كما أن العامة أخذوا ينظرون باحتقار للرفات الموضوعة في دير عندما يتعرض هذا الدير للنهب ويفقد ممتلكاته أو مزاياه على أساس أن هذا القديس فشل في القيام بدوره كمدافع عن هذا المكان. راجع:

Bloch, Feudal Society (1961), pp. 81-7; B. Ward, Miracles and the Medieval Mind (1982). passim, P.J. Geary, Furta Sacra (1978); passim, J.Sumption, Pilgrimage (1975), pp. 11-167.

نقلاً عن: Jonathan Riley-Smith, The First Crusade and the idea of crusading.- London: 2003.

(2) حسن حبشي، الحرب الصليبية، ص20.

إلى السماء على شكل أدمي، أتوسل إليك لعظمتك القوية، أن تقبض روحي في نفس المكان الذي شهد صعودك"[1].

وقد شهدت بدايات القرن الحادي عشر الميلادي اضطهادًا شديدًا للمسيحيين، فقد قام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (999-1021م) باضطهاد العناصر المسيحية في دولته[2]، فقد اتخذ قوانين صارمة منذ حوالي (400هـ/ 1010م)، فقد أمر النصارى آلا يظهروا صليبًا أو ناقوسًا، فنُزعت الصلبان والنواقيس. كما منع أهل الذمة من التظاهر بالأعياد، وأكثر من ذلك هدم الكنائس، والبيع، والأديرة في مصر، وصادر أملاكها، واحتاط على ما يوجد في الكنائس وجعله ملكًا للدولة "الديوان"[3].

وفي سنة 1009م أمر بتدمير كنيسة القيامة، إذ زعم أن ما يحدث كل سنة من معجزة النور المقدس، التي يحتفل بها الناس مساء عيد الميلاد، لابد أنها من قبيل البهتان ولا تتفق مع الدين.

وفي سنة 1014 بلغ عدد ما تعرض للحرق والنهب من الكنائس نحو ثلاثين

---

(1) عليه عبد السميع الجنزوري، الحروب الصليبية، ص249-252.

(2) راجع: كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية/ ترجمة: أحمد الشيخ.- ط1.- القاهرة: سينا للنشر، 1995. ص36-37. عبد المنعم ماجد، "بيت المقدس بين الفاطميين والسلاجقة".- مجلة التاريخ العربي (جمعية المؤرخين المغاربة) - ع11 صيف 1999. متاح بتاريخ 30 مارس 2013 على موقع المجلة الإلكتروني:

(http://www.attarikh-alarabi.ma).

(3) ويبدو أن العوام المسلمين انتهزوا هذه الأوامر، فكانوا يأتون بأمور فظيعة لم تشاهد من قبل، مثل أنهم يدخلون الأديرة والمقابر، ويأخذون توابيت الموتى، ويحرقون الكتب. ولكن الحاكم بأمر الله أنكر فعل ذلك، وأمر بالكف عنه. وقد نُسب إلى الحاكم أفعالاً ظالمة كثيرة نحو أهل الذمة، مع انها من أفعال رعاياه المسلمين المتعصبين، وهو برئ منها. راجع:

عبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر: التاريخ السياسي.- ط4.- القاهرة: دار الفكر العربي،1994. ص296-297.

ألف كنيسة، وتظاهر عدد كبير من المسيحيين باعتناق الإسلام[1]، خوفًا من بطش الحاكم وتضييق العامة عليهم في الطرقات، وفريق منهم ثاروا وساروا في شوارع القاهرة والفسطاط حتى تجمعوا تحت قصر الحاكم، وارتفعت أصواتهم بالشكوى، وكانوا يستغيثون به أن يخفف عنهم هذا العناء، فاستجاب لهم، وانتهت ثورتهم بذلك[2].

والحقيقة أن ذلك التشدد ضد المسيحيين ليس من طبيعة الإسلام التي تدعو للتسامح والمعايشة الدينية[3]، وينبغي أن نذكر أن اضطهاد الحاكم بأمر الله لم يكن موجهًا ضد العناصر المسيحية فقط، فيذكر المؤرخ الصليبي رنسيمان "وهذه التدابير جرى اتخاذها أيضًا ضد اليهود. على أنه ينبغي أن يكون ملحوظًا أن المسلمين أنفسهم تعرضوا لهذا الاضطهاد على يد زعيم عقيدتهم (خليفتهم)"[4].

وكان الحج نادرًا ما يحاط بالمخاطرة فيما عدا تقلبات الجو في جبال الأناضول، فقد كان الطريق مؤمنًا بالعساكر، ومزودًا بالطعام والماء. وكان الحجاج يلقون حسن الاستقبال من سلطات بيت المقدس الأرثوذكسية المحلية، وإن كان هناك بعض الصعوبات في بعض الأوقات، فعندما بدأ النورمان بمهاجمة الممتلكات البيزنطية في جنوب إيطاليا، عُومل الحجاج النورمان بفتور شديد من الموظفين الإمبراطوريين[5].

هذا ولم تقتصر سوء المعاملة للمسيحيين الغربيين على الجانب الإسلامي فقط، بل تعدته إلى الجانب البيزنطي، فقد تعرض الحجاج بإيعاز من الإمبراطور البيزنطي للحرمان من الدخول إلى القبر المقدس، فقد طلب الإمبراطور باسيل الثاني (958-1025م) Basil

---

(1) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، (الحروب الصليبية وقيام مملكة بيت المقدس، ص60-61).

(2) محمود خلف، ثورات المصريين في العصر الفاطمي (969-1035) - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2012. ص184 - 187. (سلسلة تاريخ المصريين، 293).

(3) عليه عبد السميع الجنزوري، الحروب الصليبية، ص252.

(4) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، (الحروب الصليبية وقيام مملكة بيت المقدس، ص60-61).

(5) عليه عبد السميع الجنزوري، الحروب الصليبية، ص252.

II من موظفيه فرض ضريبة على الحجاج وخيولهم[1].

بيد أن هذه المتاعب كانت نادرة فالجدير بالإشارة؛ أن القرن المذكور شهد تزايد أعداد الحجاج المسيحيين إلى فلسطين، ولدينا إشارة مهمة وردت في نص عن أحد المعاصرين وهو رالف جلابر (985-1047م) Ralph Glaber الذي كان من رهبان دير كلوني تدل على ذلك، فمما جاء في هذا النص: "وفي الوقت نفسه بدأت أعداد لا تحصى تتجه إلى ضريح سيدنا المخُلص في القدس قادمين من شتى أنحاء المعمورة، وكانت إعدادهم أكبر مما كان أي إنسان يظن أنها يمكن أن تكون في الماضي".

ولم يكن العامة وأبناء الطبقات الوسطى فقط هم الذين يذهبون إلى هناك، بل كان بينهم العديد من الملوك الكبار والكونتات والنبلاء. وفي النهاية انطلق بعض الفقراء - وهذا لم يحث من قبل - وكان كثيرون يتمنون أن يلاقوا الموت هناك بدلاً من العودة إلى الوطن"[2].

ومعنى ذلك؛ أن القرن الحادي عشر الميلادي هو القرن الذي حدثت في أخرياته الصليبيات شهد تعاظم ظاهرة الحج المسيحي إلى فلسطين. ومن الأمور ذات الدلالة أنه خلال المرحلة (1064-1065) حدث الحج الألماني الكبير الذي قاده سيجفرد Siegfried رئيس أساقفة ماينز Mainz، وجونسر Gunther أسقف بامبرج Bamberg، ومعه عدد آخر من رجال الكنيسة[3]، ويقال أن عدد الحجاج بلغ سبعة آلاف وقيل عشرة[4]، وقدره البعض بأثني عشر ألفًا من الرجال والنساء.

---

(1) ميشيل بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني: من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر/ ترجمة: بشير السباعي.- ط1.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، 2003. ص25، 26، 35-37.

(2) قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى، ص41-42.

(3) محمد مؤنس أحمد عوض، الحروب الصليبية، ص19.

(4) Steven Runciman "The Pilgrimages to Palestine before 1095." In A History of the Crusades (Editor in Chief, Kenneth Meyer Setton) Vol. I The First Hundred Years. Edited by Marshall W. Baldwin 68-80 Madison: University of Wisconsin Press, 1969-89. P. 76 .

ومن الملاحظ؛ أن الصراع السلجوقي - الفاطمي خلال هذا القرن قد أثر على انسياب الحج المسيحي إلى فلسطين، فلم يعد بنفس التدفق ولم يعد بنفس الدرجة من الأمان، وهو أمر منطقي من خلال المواجهات العسكرية، وغياب السلطة المركزية القادرة على فرض الأمن في مناطق عديدة في بلاد الشام ومنها المناطق التي يمر بها الحجاج المسيحيون، مع ملاحظة أنه لم يحدث من جراء الوضع السابق ما يمكنه وصفه باضطهاد شامل ووقف للحج المسيحي إلى تلك البقاع المقدسة[1].

فقد أورد أكثر من مؤرخ أوربي مسيحي منصف في صراحة تامة أن السلاجقة لم يغيروا شيئًا من أوضاع المسيحيين في الشرق[2]، وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة صاروا أسعد حالاً من الذين عاشوا في قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها، وأن ما اعترى المسيحيين في الشام وآسيا الصغرى من متاعب في ذلك العصر كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين[3].

الجدير بالذكر؛ أن الجماعات الكبيرة من الحجاج المسلحين كانت أيضًا من أسباب المتاعب، فقد أقلقت السلطات الإسلامية المشاكل التي كانوا يثيرونها اعتقادًا منهم بأنهم كلما تعرضوا لمزيدًا من الأذى والمتاعب كانت رحلتهم أكثر نجاحًا[4].

وفي رأي البعض أنه ربما كان المسلمون يفيدون تجاريًا من ازدهار الحج المسيحي إلى البلاد المقدسة، ولكن الدخل الذي كانت السلطات الإسلامية تحصله من الحجاج الكاثوليك كان تافهًا بالقياس إلى موارد المسلمين الهائلة آنذاك، ولاسيما إذا وضعنا في اعتبارنا أن التقشف كان أحد المثل العليا التي يسير الحجاج على هديها تشبهًا

---

(1) محمد مؤنس أحمد عوض، الحروب الصليبية، ص20.

(2) محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوربيون، ص26.

Thompson, J. W., Economic and social history of the Middle Ages (300-1300) - London: Constable & co, 1959. (Vol. 1, P. 391).

(3) عليه عبد السميع الجنزوري، الحروب الصليبية، ص252.

(4) See: Paul Alphandéry, La chrétienté et l'idée de croisade: les premiers croisades.- Paris: Michel, 1954. Pp. 25-26 .

بالحواريين[1].

ومها يكن؛ فإن فرنجة أوربا اتخذت شكوى الحجاج إلى بيت المقدس ذريعة لحروب المسلمين في الشرق، فنجد أن البابا إربانوس (إربان/ أوربان) الثاني Urbanus II (1088-1099م)، يكلف رجل الدين الفرنسي بطرس الراهب Pierre L'Ermite بالدعوة إلى حرب المسلمين، لتخليص الأماكن المقدسة[2]. وعقد البابا في كليرمون فران Clermont Ferrand (كليرمونت) بجنوب فرنسا، مؤتمرًا اجتمع فيه الفرنجة من جميع أركان أوربا، خطب فيه كل من البابا وبطرس حاضين فيه على حرب المسلمين، فقال البابا في خطابه: "إنه من الواجب على النصارى أن يحموا أرواحهم بالذهاب في طريق المسيح، وإذا لم يستطيعوا فليقدموا أموالهم"، وقال بطرس الراهب: "إني نظرت قبر المسيح محتقرًا مهانًا وزواره مضطهدين"[3].

فصرخ الحاضرون بالحرب، وهم يرددون "الله يريد ذلك" Dieux le volt وهي العبارة التي أصبحت صرخة المسيحية في حرب المسلمين. فأخذ الفرنجة يتجمعون من كل مكان لقتال المسلمين، وهم يعلقون على الكتف الأيمن أو على الكتفين صليبًا من قماش أحمر، لذلك عُرفت التي قاموا بها ضد المسلمين ب الحروب الصليبية Cruzada[4]، أما

(1) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص31.

(2) وكان من أهم الدوافع التي شجعت الصليبيين على السير إلى الأراضي المقدسة والاستيلاء عليها هو رغبة الكنيسة اللاتينية الغربية في نشر المذهب الكاثوليكي في جميع أنحاء العالم آنذاك حتى لو اضطرت إلى استخدام السلاح من أجل تحقيق هدفها. انظر:

مصعب حمادي نجم الزيدي، "المؤسسة الدينية: فيدولة القدس الصليبية".- مجلة جامعة كركوك للدراسات الانسانية.- المجلد: (7) الاصدار: (3) عدد خاص بمؤتمر كلية التربية، 2012. ص490.

(3) عبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية، ص367.

(4) راجع: فيليب حتى، مختصر تاريخ لبنان/ تعريب: كمال اليازجي.- بيروت: دار الثقافة، د.ت. ص128. فقد كان شارة الصليب مدلولاها الخاص في أذهان الذين حملوه، إذ آمنوا بأنه يجلب لهم الحماية من مغبة الشرور وأهوال الطريق. أنظر: إسحاق تاوضروس عبيد، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين (869–1204) – القاهرة: دار المعارف، 1970. ص71.

المؤرخون العرب مثل ابن تغري بردي فسموها بـ"حركة الفرنج"، أما المشتركون فيها فسماهم العرب "الفرنجة"، ويقصدون بهم كل محارب مسيحي غير عربي[1].

وبذلك يتضح؛ أن الحج المسيحي لعب دورًا بارزًا في اندلاع الحركة الصليبية، بعد خطاب البابا أوربان الثاني الذي أشعل نيران الحماس التي لم تنطفئ في نفوس أهل الغرب الأوربي، فلم يحدث في تاريخ القرون الوسطى في أوربا أن وجد خطاب أحدث مثل ذلك الأثر الفعال، على نحو ضمن لتلك الكلمات التي ألقيت في ذلك اليوم المشهود المكانة العُليا في تاريخ أوربا العصور الوسطى، بل وعلاقاتها الدولية بآسيا وأفريقيا، لقد حول هذا الأمر المسيحية من ديانة مسالمة ترفض الحرب وتنبذ لغة القوة إلى ديانة محاربة، يحشد معتنقوها آلة الحرب الضخمة من أجل الاعتداء على الشعوب غير المسيحية[2].

2- المقدسات المكانية المسيحية في القدس:[3]

أما فيما يتعلق بالأعمال الأساسية من بناء وعمارة للمواقع الدينية المسيحية في القدس، فقد بدأ ذلك منذ عهد قسطنطين[4]، وسرعان ما أصبحت القدس هي المدينة المقدسة بامتياز،

---

(1) عبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية، ص368.

(2) محمد مؤنس عوض، سندباد في عصر الحروب الصليبية.- ط1.- الجيزة: عين للبحوث والدراسات، 2002. ص15. محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوربيون، ص26-27.

(3) موسى ديب الخوري، "تاريخ القدس المسيحية قبل الإسلام".- مؤسسة القدس للثقافة والتراث.- منشور بتاريخ 28 مارس 2011. على الرابط: (php http://alqudslana- com/index-)

(4) راجع: صلاح الدين محمد نوار، العدوان الصليبي على العالم الإسلامي (490-515هـ/ 1097-1121م) - ط1.- الإسكندرية: دار الدعوة، 1993. ص25. شوقي شعث، القدس الشريف.- الرباط: بابل للطباعة والنشر، 1988. ص182.

William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea/ trans. Emily A. Babcock and A.C. Krey.-New York: Columbia University Press, 1943. (Vol. 1, P.66).

ومركز الحج الأهم في العالم المسيحي كله[1]، وبعد اكتشاف أجزاء من الصليب قرب الجلجثة[2] وقبر المسيح (سنة 325)، خلال رحلة قامت بها القديسة هيلانة.

بنيت بفضل سخاء قسطنطين بازيليكة الشهادة (حيث تم وضع الصليب المكتشف، في جوار الجلجثة) وكذلك الكنيسة المقببة فوق قبر المسيح، وكذلك بازيليكة إيليونا على جبل الزيتون (فوق المغارة التي كان يجتمع فيها المسيح مع تلاميذه ويعلمهم ويحاورهم)[3].

وخلال القرن الرابع، شُيدت أيضًا بمبادرة من أساقفة القدس وعدد من الأغنياء المتبرعين كنائس على جبل صهيون (في موقع تجلي المسيح بعد القيامة وموقع نزول

---

(1) وعن أهمية أورشليم للمسيحيين، راجع:

Hunt Janin, Four Paths to Jerusalem: Jewish, Christian, Muslim, and Secular Pilgrimages, 1000 BCE to 2001 CE.- North Carolina: McFarland, 2006. Pp. 24 -25.

(2) كالفاري Calvary (الجلجه/ الجلجثه): اسم المكان الذي صُلب فيه المسيح بالقرب من القدس، وهو آخر مرحلة في الرحلة التي سارها السيد المسيح حاملاً الصليب لتنفيذ الحكم بصلبه في طريق يسمى طريق الآلام أو الصليب. وقد أجمع المؤرخون وعلماء الآثار على أن تل الجلجثة (مكان الصلب) كان واقعًا خارج أسوار القدس الشمالية الغربية في أيام المسيح. راجع:

أحمد دراج، وثائق دير صهيون في القدس الشريف.- القاهرة: مكتبة الأنجلو، 1968. ص137 هامش (44).

ميخائيل مكس إسكندر، القدس وبيت لحم.- القاهرة: مكتبة المحبة، 1999. ص79.

(3) كنيسة القيامة: قامت ببنائها هيلانة أم قسطنطين سنة 325 فوق الجلجة، في الموضع الذي تم اكتشاف خشبة الصلب فيه، وقد قام الفرس بإحراقها في عهد كسرى سنة 614م، وتمت إعادة بناءها على يد الراهب مورسطس سنة 617م، وفيما بعد عندما قام الخليفة عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" بفتح بيت المقدس سنة 639م لم يصب كنيسة القيامة بأذى، بل إنه رفض أن يصلي فيها حتى لا يتم تحويلها إلى مسجد، وقام الخليفة الحاكم بأمر الله بتدميرها، ثم عمل ابنه الظاهر من بعده على إعادة تعميرها. انظر:

محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية.- ط1.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، 1995. ص62 هامش (50).

الروح القدس، والذي اعتبر أيضًا فيما بعد موقع العشاء الأخير)، وفي جثسيماني (في موقع الآلام)، وعلى قمة جبل الزيتون (في موقع صعود المسيح إلى السماء بعد القيامة).

وفي القرن الخامس الميلادي بُنيت كنائس كثيرة في أنحاء متفرقة من القدس على مواقع نسبت إلى مشاهد من حياة من المسيح، ومنها قصر قيافا الذي أصبح كنيسة القديس بطرس، ومقر ومحكمة بيلاطس (كنيسة القديسة صوفيا)، وقبر العذراء مريم، وبركة سلوة، وبركة الغنم، وقبر لعازر في بيت عنيا ومواقع أخرى أقل أهمية. وبنت الأوغسطا أفدوكيا كنيسة أخرى ضمت رفاة القديس اسطفانوسوس المكتشفة في سنة 415.

وفي القرن السادس، بنى جوستينيانوس كنيسة القديسة مريم البتول الجديدة حيث وضع فيها بعضًا من ذخر العذراء مريم. وفي جوار هذه الكنائس بُنيت أيضًا مضافات وخانات مخصصة للحجاج. وتضاعف كذلك في المدينة المقدسة عدد الأديرة، وخاصةً على جبل الزيتون ومنها دير ميلانيا الكبرى سنة 372، ودير ميلانيا الصغرى سنة 417. وفي سنة 450 رممت الامبراطورة إفدوكيا التي كانت تقيم في القدس سور المدينة وفق المسار الأوسع له بحيث ضمت جبل صهيون داخل السور.

وكان عدد المسيحيين قد أصبح هو الأكثرية في القدس، وكان اليهود ممنوعين من الدخول إليها، إلا في ذكرى دمار الهيكل، وخلال العهد القصير الذي حكم فيه جوليانوس (361 363)، حيث جرت محاولة لإعادة بناء الهيكل إنما باءت بالفشل. وكان عدد الحجاج الوافدين من كل أنحاء العالم القديم كبيرًا جدًا. وعبر هؤلاء الحجاج أثرت الطقوس المقدسية بكنائس كثيرة في أرجاء العالم.

في سنة 614 استولى الفرس على المدينة بعد حصار طويل، وقتل عدد كبير من سكانها، ونهبت معظم معابدها وأحرقت. ودام احتلال الفرس لها حتى سنة 629، وفي السنة التالية أعاد هرقل المنتصر على الفرس ذخر الصليب الذي كان هؤلاء قد أخذوه معهم إلى سلوقيا طيسفون.

وقام البطريرك مودستوس بترميم جزئي لعدد من الكنائس. ولكن لم يمض وقت كثير حتى كان العرب قد وصلوا لمحاصرة المدينة، وبعد حصار دام سبعة أشهر رضخت

المدينة للخليفة عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" وفق شروط متسامحة، فأعطيت الحرية المدنية والدينية مقابل جزية سنوية.

أما الأماكن المقدسة للمسيحيين[1]، فكانت تتركز جميعها على التل الغربي، وعلى هذا، ظلت تلك المنطقة بالكامل منطقة مسيحية، ولم يستوطن الفاتحون المسلمون ذلك الجزء من المدينة.

ومُنع المسلمون من أيضًا من ارتياد الكنائس الواقعة على جبل الزيتون ووادي قدرون، وخاصةً كنيسة الصعود[2] Ascension وقبر العذراء، حيث كانت هذه الأماكن تجسد مواقع وأحداثًا هي موضع تبجيل من قِبل المسلمين كذلك.

وسمح للمسيحيين ببناء وترميم كنائسهم دون قيود. وفي الواقع فقد كان هناك فيض من تشييد الكنائس في فلسطين والشام في القرنين السابع والثامن الميلاديين[3].

3- المشرق العربي الإسلامي قبيل الحروب الصليبية:[4]

في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي كان المسلمون في المنطقة العربية موزعين في ولائهم السياسي بين الخلافة العباسية السنية في بغداد والخلافة الفاطمية

---

(1) رغم الإخلاص والاهتمام الذي أبداه المسيحيون الأوائل بالحفاظ على الذكريات الخاصة بالمواقع المقدسة، يجب أن لا نغفل عن إمكانية وجود بعض الشكوك المبررة بخصوص الدقة التاريخية الخاصة بالمواقع والأحداث الإنجيلية. راجع: "الأحداث الإنجيلية الخاصة بأماكن الحج في منطقة نهر الأردن"، ضمن الدليل الكتابي والسياحي للأرض المقدسة.- متاح بتاريخ 5 أبريل 2013 على الرابط:

(http://19862751 /www1/ofm/jordan/Biblicalevents_Ar- html).

(2) راجع: عرفه عبده علي، القدس العتيقة: مدينة التاريخ والمقدسات.- ط1.- القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2007. ص81 (سلسلة هوية المكان)

(3) كارين أرمسترونج، القدس: مدينة واحدة، عقائد ثلاث/ ترجمة: فاطمة نصر، محمد عناني.- القاهرة: دار سطور للنشر والتوزيع، 1998. ص393.

(4) مصطفى وهبه، موجز تاريخ الحروب الصليبية.- ط1.- القاهرة: مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، 1997. ص16-17. كلود كاهن، الشرق والغرب، ص41-51.

الشيعية في القاهرة، وبالإضافة إلى النزاع والتخاصم المستمر بين الخلافتين، فإن أحوالهما الداخلية كانت مرتبكة بالقدر الذي جعل بلاد الشام، وهي المجال الحيوي الذي تنازعت الخلافتان السيادة عليه، موزعة أو مقسمة إلى عدة إمارات صغيرة، كل إمارة مستقلة بذاتها يحكمها حاكم عربي أو حاكم من السلاجقة. وكانت مشاعر الحقد والشك المتبادلة بين هذه الكيانات السياسية الصغيرة سببًا في العداء السياسي والعسكري الذي كان حائلاً دون توحدها في مواجهة الغزو الصليبي.

كانت الأحوال السياسية الداخلية المرتبكة قد جعلت الخلافة أو الدولة العباسية عمليًا في أيدي الأمراء السلاجقة، يتحكمون فيها ويوجهون دفة الحكم بها كيف شاءوا. وعلى الجانب الآخر؛ كانت الخلافة الفاطمية قد دخلت مرحلة التدهور السياسي الداخلي بعد أن سيطر الوزراء فيها على الخلفاء وحولوهم إلى دُمى يحركونها حسب أهوائهم[1].

وعلى الرغم من المحاولات العسكرية المتكررة، إلا أن الفاطميين فشلوا في استرداد نفوذهم الضائع في الشام. وكانت الخلافات السياسية والمعارك العسكرية تشتعل بينهم وبين السلاجقة حماة الخلافة العباسية، الذين كانوا يطمحون إلى ضم الشام ومصر تحت رايتهم. كما كانت هناك منازعات ومناوشات دائمة بين السلاجقة والسلاجقة، وبين السلاجقة وحكام الإمارات العربية في الشام.

وعندما وصل الصليبيون إلى المنطقة كانت هناك إمارة في حلب يحكمها "رضوان" الموالي للفاطميين، وكان العداء مستحكمًا بينه وبين إمارة الشرق التي يحكمها "دقاق" الموالي للعباسيين، أما إمارة شيراز على نهر العاص قرب حماة فكانت تحت حكم بني منقذ، على حين كانت طرابلس تحت حكم بني عمار الشيعة، أما بيت المقدس فقد ظل بأيدي السلاجقة حتى سنة 1098م/ 491هـ حين استولى عليها الفاطميون في أثناء وجود الصليبيين في أنطاكية، أما مدن الشمال في آسيا الصغرى وأعالي بلاد الشام فكانت تنتقل

---

(1) راجع: محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب.- ط2.- بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982. ص15-17.

من حكم البيزنطيين إلى حكم المسلمين، ثم العكس، بطريقة تبادلية وبإيقاع سريع، وكانت ضحية التخريب المستمر والتدهور.

وهكذا؛ وعلى مدى قرن كامل قبل قدوم الصليبيين، كانت المنطقة العربية الإسلامية مقسمة إلى كيانات سياسية صغيرة متصارعة، ولذلك عندما قدم الصليبيون لم يكن لدى حكام العرب والمسلمين سوى ميراث طويل من الشك والمرارة تجاه كل منهم للآخر.

وفي طيات الموجة الصليبية الأولى غرقت هذه الإمارات الصغيرة الواحدة تلو الأخرى. وكان سقوط مدينة "نيقية" عاصمة دولة السلاجقة في أيدي قوات الحصار المشتركة من الصليبيين والبيزنطيين صدمة ونذير خطر لجميع القوى الإسلامية، ولكن الأنانية وضيق النظر جعل تلك الصدمة وذلك النذير بلا فائدة.

فقد تعجب المؤرخ أبو المحاسن من موقف الفاطميين وعدم مشاركتهم القوى الإسلامية التي نهضت للدفاع عن أنطاكية ضد الصليبيين[1]، والحقيقة أن الفاطميين لم يفهموا الحركة الصليبية على حقيقتها، وانتهزوا فرصة ما حل بالسلاجقة في شمال الشام ليستردوا فلسطين وبيت المقدس، ظنًا منهم أنه بات من الميسور تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة والبيزنطيين والصليبيين جميعًا[2].

ولكن إذا كان الفاطميون قد ظنوا أنهم استفادوا من حالة الفوضى التي أمسى فيها العالم الإسلامي نتيجة لوصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق، فإن الحقيقة المرة لم تلبث أن صدمتهم. فالصليبيون والفاطميون تحالفوا ضد العدو المشترك وهم الأتراك، ولكن باستيلاء الصليبيين على أنطاكية والفاطميين على بيت المقدس، غدا الحليفان وجهًا

---

(1) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. (نسخة إلكترونية:www.alwarraq.com)

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية.- ط4.- القاهرة: مكتبة الأنجلو، 1986. (ج1، ص184)
وعن حقيقة موقف الدولة الفاطمية من الحركة الصليبية راجع: سعيد عبد الفتاح عاشور، "شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية".- ضمن كتاب: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى.- بيروت: دار الأحَد، 1977. ص165-223.

لوجه، ولا مناص من حدوث صدام بينهما[1].

4- بيت المقدس عشية الحروب الصليبية:[2]

لم تلعب مدينة من المدن القائمة على وجه هذه البسيطة الدور الذي لعبته مدينة القدس في التاريخ، إنها وإن لم تكن من المدن التجارية المهمة، ولا من المدن الزراعية أو الصناعية رغم وقوعها بين البادية من الشرق والبحر من الغرب، إلا أنها كانت على مر الدهور مطمع أنظار الغزاة والفاتحين فحوصرت مرارًا، وهدمت تكرارًا، وهُجرت، وأعيد بناؤها ثماني عشرة مرة في التاريخ، ولكنها بالرغم من هذا كله ظلت قائمة في هذا الوجود وظل اسمها مذكورًا في طليعة المدن والبلدان، وذلك لأنها مقدسة في نظر جميع الأديان، ولعل هذا السبب في أغلب الأحيان في شقائها، وفيما أصابها من رزايا ومحاسن[3].

لقد مر على بيت المقدس أكثر من أربعة قرون ونصف منذ خضوعها للحكم الإسلامي، وبعد حصار استمر أربعة وعشرين يومًا سنة 614م استسلمت المدينة البيزنطية للغزو الفارسي لها، وعلى الرغم من أن المدينة قد تم استعادتها بعد أربعة عشر عامًا على يد الإمبراطور هرقل، فإن الغزو الفارسي لها سنة 614م كان بمثابة إعلان عن نهاية بيت المقدس المسيحية، إذ سقطت المدينة في أيدي الجيش المسلم بعد عقدين من الزمان، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب "رضي الله عنه". وخلال الأربعة قرون والنصف التالية، توالى على حكمها بعض الحكام العسكريين المسلمين، والذي كانوا يمثلون حكمًا أجنبيًا بالنسبة لها.

حكمها الأمويون من دمشق حتى سنة 750م، ثم العباسيون في بغداد حتى سنة 878م، فالفاطميون في مصر منذ 868م إلى سنة 905م، ثم الخلفاء الفاطميون منذ سنة

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، (ج1، ص187).

(2) أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية/ ترجمة: علي السيد علي.- ط1.- القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010. ص32-33.

(3) عارف باشا العارف، تاريخ القدس.- ط2.- القاهرة: دار المعارف، 1994. ص185.

969م وحتى سنة 1073م، إلا أنه في شهر يونيو من تلك السنة قام الأتراك السلاجقة بالاستيلاء عليها، وفي سنة 1098م، أي قبل وصول الحملة الصليبية بعام واحد، عادت بيت المقدس إلى الحكم الفاطمي مرة أخرى[1].

وبوجه عام فإن تخطيط المدينة الطبيعي تحت الحكم الإسلامي اختلف بعض الشيء عنه أيام كانت تحت الحكم البيزنطي. والتغير الرئيس الوحيد كان في القرن الحادي عشر الميلادي، عندما تمت إعادة بناء السور الجنوبي لها، والذي جعل من مدينة داود وجبل صهيون خارج الأسوار، كما تم زحزحة السور الشمالي الغربي إلى مسافة أبعد في اتجاه الغرب.

وعلى أية حال؛ فإن التغيرات الرئيسة التي تمت كانت في العمارة المدنية، حيث تم تشييد العديد من المنشآت العامة الجديدة. وأهم هذه المنشآت كانت قبة الصخرة، والمسجد الأقصى، والقصور الأموية إلى الجنوب من الحرم الشريف[2].

وفي فترة الحكم الفاطمي اقترب عدد سكان بيت المقدس من العشرين ألفًا. ومنهم عدة طوائف من اليهود، والعديد من الجماعات المسيحية الشرقية، والمسلمين. وبعد عدة مئات من السنين من الفتح الإسلامي، فإن المسلمين ربما كانوا لا يزالون يشكلون أقلية، كما أنهم – وعلى ما يبدو – لم تكن لهم السيطرة التامة على مقاليد الأمور في المدينة. واستمر تدفق الحجاج اليهود والمسيحيين على الرغم من الصعوبات والأخطار التي واجهتهم.

ويصف لنا الرحالة الفارسي "ناصر خسرو" بيت المقدس[3] بأنها مدينة كبيرة، محاطة

---

(1) راجع: محمد سامي أحمد امطير، الحياة الاقتصادية في بيت المقدس وجوارها في فترة الحروب الصليبية (1099–1187م)/ إشراف: جمال جودة.– نابلس: كلية الدراسات العليا، 2010. ص27–30. (أطروحة ماجستير غير منشورة).

(2) راجع: وليم الصوري، الحروب الصليبية/ ترجمة وتعليق: حسن حبشي.– القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992. (ج2، ص88–90).

(3) راجع: مصطفى الحياري، مدينة القدس في عصر الفاطميين والفرنجة.– عمان: مكتبة عمان، 1994.

بسور حصين من الحجر والجص وعليها بوابات حديدية، وبها أسواق جميلة وأبنية عالية، وكل أرضها مبلطة بالحجارة.

وقد سدوا الجهات الجبلية والمرتفعات، وجعلوها مسطحة بحيث تغسل الأرض كلها وتنظيف حين تنزل الأمطار. كما أن الغزو السلجوقي للمدينة في الفترة من 1073 وحتى 1098م لم يترك أي دليل على وجود منشآت مهمة لهم في تلك الفترة.

وفي شهر أغسطس 1098م استعاد الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي (1066-1121م)[1] مدينة بيت المقدس، استعدادًا لوصول الجيوش الصليبية المتوقع، والتي كانت تقترب من أنطاكية في تلك الآونة، كما قام الحاكم الفاطمي افتخار الدولة بحشد جيش كبير مدرب، وزود الحامية بعدد من خيرة الفرسان المصريين بلغ (400) فارس. واستعد المسلمون لوصول الصليبيين بتقوية أسوار المدينة، وعلى وجه خاص من الجهة الشمالية، حيث قاموا بتقوية بعض الحصون وبناء بعض الحصون الأمامية، كما حفروا خندقًا في جبل صهيون، وقاموا بتقوية السور الأمامي، وتحصن سكان القرى المحيطة في داخل الأسوار. في حين تم استبعاد أكبر عدد من السكان المسيحيين من المدينة إلى القرى المجاورة، كنوع من الوقاية من حدوث خديعة من جانب المسيحيين والذين كان يحدوهم الأمل في عودة الحكم المسيحي.

وعندما أدرك الأفضل أن بيت المقدس هو الهدف الأساسي للصليبيين أرسل إليهم

ص103-105.

(1) الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي: من أصل ارمني، كان والده مملوكًا أرمينيًا لجمال الدولة بن عمار، فعُرف ب الجمالي، ثم ظل يرتفع إلى أن صار حاكمًا على الشام، وقد استنجد به الخليفة الفاطمي المستنصر بالله للقضاء على فتن طوائف الجند في مصر، فأضاف بذلك عنصرًا جديدًا في الجيش والدولة، وهو العنصر الأرمني. وقد خلف الأفضل أباه بدر الجمالي في منصب الوزارة. راجع: فهمي توفيق محمد مقبل، شخصية الدولة الفاطمية في الحروب الصليبية.- ص45 هامش (11). نسخة إلكترونية من الكتاب متاحة عبر (www.uop.edu.jo) بتاريخ 20 مارس 2013.

سفارة وصلتهم قرب طرابلس، تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة لكل واحد من زعماء الصليبيين؛ كما تحمل لهم عرضًا من الخليفة الفاطمي خلاصته أن يسهل لهم مهمة الحج إلى أماكنهم المقدسة على شكل مجموعات من مائتي أو ثلاثمائة حاج، بشرط ألا يكونوا مسلحين[1].

ولكن الصليبيين ردوا عليه بأنهم سيتمكنون من الحج فعلاً، ولكن بمعونة الله وإرادته، وكان معنى ذلك بداية الحرب بين الصليبيين والفاطميين من أجل بيت المقدس.

فقد استولى الصليبيون على أنطاكية بعد حصار استمر نحو سبعة أشهر[2]، وكان هدفهم التالي بيت المقدس[3]، الذي كان بأيدي الفاطميين، فحاصروه شهرًا كاملاً، حتى سقطت المدينة في يوليو 1099م، تحقيقًا لهدف الحملة الصليبية المنشود[4].

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، (ج1، ص187)

Michaud, Joseph Francois. Histoire des Croisades.- Paris: Michaud/Pillet, 1817. (Vol. 1, Pp. 362-363).

(2) عن وصول الفرنجة إلى أنطاكية وفظائع الحصار، راجع: فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس (1095-1127)/ ترجمة: زياد جميل العسلي.- ط1.- عمان: دار الشروق، 1990. ص53-55.

(3) كانت مدينة بيت المقدس عشية الاحتلال الصليبي لها مجرد أسقفية تابعة لأسقفية قيسارية، راجع: جان ريتشارد، "تكوين مملكة القدس اللاتينية"، ضمن كتاب: الصراع الإسلامي - الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى/ تحرير: هادية دجاني.- بيروت، 1994. ص160-161. سعيد عبد الله البيشاوي، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية.- الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1990. ص106.

(4) بطرس توديبو، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس/ ترجمة: حسين محمد عطية.- الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1999. (مقدمة المترجم، ص10). وراجع: أمين معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب/ ترجمة: عفيف دمشقية.- ط2.- بيروت: دار الفارابي، 1998. ص61-83. ومن الملاحظ؛ أنه لو كان الهدف الوحيد من الحملة الصليبية هو بيت المقدس، لاكتفوا بهذا الانتصار الكبير. فقد صار بيت المقدس تحت حكم المسيحيين لأول مرة في التاريخ، إلا أن الذين جاءوا

وبعد مشاورات بين قـادة الحملـة تم انتخـاب جـودفري البويـوني ليكـون حاكمًـا للكيان الجديد، تحت لقب "حامي القبر المقدس"[1].

وهكذا قامت مملكة بيت المقدس الصليبية[2] وعاصمتها بيت المقدس أولاً، ثم عكا بعد معركة حطين 1187م[3]. استمر هذا الكيان ما يقرب من مائتي عام ما بين سـنة 1098[4]، وهـو العـام الـذي شهد تأسيس إمارتي أنطاكية والرها، وسنة 1291م التي شهدت طرد البقايا الصليبية مـن بـلاد الـشام على يد السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون.

يحملون الإنجيل ويرفعون الصليب قاصدين القدس، لم يتوقفوا عند القدس، بل راحوا ينتشرون في أرجاء المشرق الإسلامي، ويقيمون فيه ممالك مسيحية. انظر: عبد الحميد الكاتب، القدس: الفتح الإسلامي، الغزو الصليبي، الهجمة الصهيونية.- طبعة خاصة.- القاهرة: دار الشروق، 1998. ص81، ص83.

(1) See: Tyerman, Christopher.- God's War: A New History of the Crusades.- Cambridge: Belknap Press of Harvard University Press, 2006. pp. 159- 160 .

سالم محمد الحميدة، الحروب الصليبية: عهد الجهاد المبكر.- ط1.- بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1990. (ج2، ص12).

(2) See: Riley-Smith, "The Title of Godfrey of Bouillon", Bulletin of the Institute of Historical Research 52,1979. pp. 83–86. Murray, Alan V., "The Title of Godfrey of Bouillon as Ruler of Jerusalem", Collegium Medievale 3, 1990. pp. 163–178 .

(3) كانت معركة حطين في 4 يوليو 1187م/ 583هـ واسترداد المسلمين بعدها لبيت المقدس بمثابة ضربة قاصمة للكيان الصليبي في بلاد الشام الذي بدأ في الانهيار، ذلك لأن المدن الصليبية كانت تتهاوى واحدة تلو الأخرى في يد المسلمين. ولهذا حشدت أوربا قواتها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وذلك في صورة حملة صليبية جديدة، وهي المعروفة بالحملة الصليبية الثالثة. راجع: أشرف صالح محمد سيد، الدبلوماسية الأيوبية الصليبية (1191–1192) – بيروت: شركة الكتاب العربي الإلكتروني، 2007. ص9 وما بعدها. (سلسلة المؤرخ الصغير، 2)

(4) ستانلي لين بوول، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس/ ترجمة: فاروق سعد أبو جابر.- ط1.- القاهرة: وكالة الأهرام للتوزيع، 1995. راجع: ص45 وما بعدها.

ونستطيع القول؛ أن احتلال القدس 1099 كان البداية في حركة الإفاقـة والتجمـع في العالم الإسلامي وبعثه من جديد بعد الهوان الذي أصابه، فكانت قضية احتلال القدس واستعادتها، وما قبل الاحتلال من أسباب في سقوطها، وما قبل اسـتعادتها مـن أسـباب جعلت من القضية في الفترة التي قاربت مائتين عام صفحة ناصعة للمسلمين، أعـادت إلى الدين الإسلامي هيبته، والفكر الروحي في طياته، وللمسلمين تثبيت إيمانهم، وللـصليبيين أن لا جدوى من قرع الباب[1].

(1) ابتسام رسول حسين، "الغزو الصليبي للقدس: الجذور والتأريخ".- مجلة التراث العلمي العربي (جامعة بغداد) – الإصدار2 السنة 2010. ص12.

الكنيسة في مملكة بيت المقدس

بيت الرب .. الدور والواجبات

(1099- 1187)

فَرِحْتُ بِالْقَائِلِينَ لِي إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ نَذْهَبُ
تَقِفُ أَرْجُلُنَا فِي أَبْوَابِكِ يَا أُورُشَلِيمُ

سفر المزامير (122)

الكنيسة في مملكة بيت المقدس

بيت الرب .. الدور والواجبات (1099- 1187)

مقدمة:

قبل قدوم الصليبيين إلى منطقة فلسطين وتأسيس مملكة بيت المقدس لم يكن هناك أي وجود للشعائر الدينية اللاتينية على أرض تلك المنطقة، فيما عدا مستشفى القديس يوحنا في القدس التي كانت تقدم خدماتها للحجاج اللاتين، ومع مقدم الصليبيين إلى المدينة المقدسة، وقيام حكمهم فيها، واتساع رقعة الأرض التي سيطروا عليها بدأت الكنيسة اللاتينية تأخذ شكلها تدريجيًا فوق الأرض المقدسة.(1)

وتأتي أهمية هذا البحث من ندرة الكتابات العربية المتخصصة التي تناولت موضوع التواجد الكنسي اللاتيني في الأرض المقدسة، فالفترة التي يعرض لها البحث تعددت فيها أعمال، وأنشطة، وعلاقات الكنيسة، مما يجعلها مرحلة مهمة في تاريخ الكنيسة اللاتينية.

وفي سبيل إنجاز هذا البحث تم اتباع المنهج العلمي التاريخي لدراسة دور الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس والتعرف عليه، وعلى طبيعته وأهدافه، حتى يمكن تقدير حجمه ومعرفة أثره، وما حققه من نتائج كان لها أثرها المباشر على مستقبل الحركة الصليبية. وعلى هذا تناول البحث شكل وتنظيم ومنشآت الكنيسة، وثرواتها، ثم واجبها في الحرب، بالإضافة إلى واجباتها الرعوية الأخرى: أعمال الحج ورعاية الحجاج، الأعياد، العماد، الإصلاحات الكنسية.

---

(1) راجع: فتحي عبد العزيز، أشرف صالح محمد، الكنيسة ودورها في مملكة بيت المقدس اللاتينية (1099 – 1187).- القاهرة: منشورات كان التاريخية، 2014. ص111 – 140. فتحي عبد العزيز محمد، أشرف صالح محمد، "الكنيسة في مملكة بيت المقدس عصر الحروب الصليبية".- مجلة علوم الإنسان والمجتمع (جامعة محمد خيضر بسكرة – الجزائر).- العدد(9)، مارس 2014. ص15 – 47.

1- تنظيم الكنيسة في بيت المقدس:

لقد بدأ تنظيم الكنيسة مع بداية اختيار البطريرك، وكـان ذلـك العمـل منطقيًـا، فقـد كانت بطريركية بيت المقدس خالية من بطريركها الأرثوذكسي الذي ترك المدينة قبل قليل من قدوم الصليبيين، كذلك فإن اللاتين كانوا الغالبية المسيطرة على المدينـة المقدسـة حينـذاك[1]. وتزامن تنظيم الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس مع فتوحـات وتوسـعات الملـوك، كمـا كـان للعلاقة بين البطريرك والملك أثرها الواضح في شكل التنظيم.

لقد حصل دايمبرت من جودفري البوايوني، أول حاكم للقدس على ربع مدينة يافـا، ووعد بإعطائه يافا والقدس معًا في حالة اتساع المملكة أو موته دونما وريث شرعي[2]، بينما لم يتمكن من الحصول على مكسب ذي بال لـصالح الكنيـسة في عهـد بلـدوين الأول بـسبب الخلاف الذي شجر بينهما. ولم يتغير الوضع في بطريركية ايفرمار (1102-1108م) الذي كان يفتقر إلى القدرات التي يتحتم أن يتمتع بها رجل في مثل منصبة.

ولقـد كـان خليفتـه جـبلين (1108-1112م) قـادرًا علـى ممارسـة دوره في تنظـيم الكنيسة اللاتينية دونما معارضة من أي جانب لفوزه برضاء كل الأطراف سواء الملـك أو رجال الدين.

اعتلى جبلين عرش البطريركية سـنة 1108م، ولم يكـن يتبـع بيـت المقـدس سـوي أسـقفيتين، أقيمـت الأولى في الرملـة أثنـاء تقـدم الـصليبيين صـوب بيـت المقـدس سـنة 1099م[3]. وأقيمت الثانية في قيسارية عند استيلاء بلدوين الأول عليها سنة 1101م، وقام

---

(1) J. Richard, The Political and Ecclesiastical Organization of the Crusader States, in Setton ed., A History of The Crusades Vol. V., U.S.A.1985.p.235 .

(2) William of Tyer, A History of the Deeds Done Beyond the Sea, transl. and annotated by Emily Atwater Babcock and A.C. Krery, Colombia University Press1943., Vol. I, p.403 .

(3) Fulcher of Charter, A History of the Expedition to Jerusalem (1095-1127), trans., Rita Ryan, ed..- U.S.A: Harold Fink,1969. p.115., Smail, R,C, The Crusaders in Syria and The Holy Land, Great Brittan 1974.p.123.

برسم أسقف لاتيني بها في نفس العام. ودفع ذلك العمل مؤرخًا مثل ريتشارد إلى القول بأن تنظيم الكنيسة كان عملاً ارتجاليًا[1].

وكان على جبلين أن يعمل من أجل تنظيم الكنيسة بصورة منطقية، وقد كان اهتمامه الأول توفير الخدمة الكنسية التي تتناسب وقدسية بعض الأماكن، مثل بيت لحم التي قام برفعها إلى أسقفية رغم تعارض ذلك مع النظام الكنسي الأرثوذكسي السابق. وتكرر ذلك الأمر أكثر من مرة في مملكة بيت المقدس.

وكان هناك أكثر من سبب لمثل ذلك العمل بالنسبة لبيت لحم، لقد حظيت كنيسة المهد بقدسية خاصة، وتم بها تتويج بلدوين الأول ملكا، كما أن بلدوين الأول أراد رفعها إلى أسقفية وقام ببعض الإجراءات في هذا الشأن رغم أنها تتبع عسقلان حسب التنظيم الكنسي الأرثوذكسي وأرسل إلى البابا حول الأمر.

وكان جبلين على علم برغبة بلدوين قبل قدومه إلى القدس، فقد عهد إليه البابا باسكال الثاني ببحث الموضوع. وبقرار من البطريرك وموافقة من الملك ورجال الدين تم تنصيب اشيتنوس Aschetinus كأول أسقف لاتيني لبيت لحم على أن تتبعه عسقلان التي لم يستول الصليبيون عليها قبل سنة 1153م.

كذلك قام جبلين بتنصيب أسقف لاتيني لكنيسة الناصرة والتي بها الأماكن المقدسة وكنيسة البشارة، ولم يكن هناك تعارض بين ما قام به جبلين والنظام الأرثوذكسي القديم، فقد كان للمدينة أسقف يتبع البطريرك مباشرة غير أن المعارضة جاءت من قبل مقدم جبل طابور اللاتيني. الذي كان يزعم لنفسه مكانة أسقفية نتيجة حصوله على اختصاصات أسقف من قبل البابا باسكال الثاني سنة 1107م[2].

وتسلم أول أسقف لاتيني للناصرة مهام منصبة كما تبين الوثائق سنة 1109م،

(1) Richard., Op. Cit., p.239.

(2) Hamilton, Bernard, The Latin Church in The Crusader States, The Secular Church.- London, 1980. p.60.

وامتد نفوذه على كل الجليل[1]. ويمكن تفسير اهتمام جبلين ببيت لحم والناصرة في ضوء إحساس الصليبيين بأهمية أن تكون مثل تلك الأماكن التي تحوي الأضرحة الكبيرة للمسيحية ضمن الهيئة الكنسية، وألا تكون مهملة الشأن.

ولقد أراد جبلين نشر النظام الأوغسطيني، وإقامة أساقفة لاتين في المدن الساحلية التابعة للمملكة، وكانت مدينة عكا بيد الصليبيين منذ سنة 1104م، ورغم أهميتها فإنها لم ترق إلى أسقفية. وقد قام بلدوين الأول في سنة 1110م بالاستيلاء على مدينتي بيروت وصيدا، وتمثل المدينتان جزءًا من إقليم صور الذي يتبع بطريركية أنطاكية حسب النظام الأرثوذكسي القديم، غير أن جبلين، وبتأييد من الملك بلدوين، أراد ضم الميناءين إلى نفوذه الكنسي. ويرجع موقف بلدوين إلى رغبته في أن تكون المناطق التابعة لسيطرته تابعة لبطريركيته، وكان مبرر جبلين في ضم المدينتين هو أن خمسة قرون من التواجد الإسلامي كفيلة بإحداث فوضى في التقسيم الكنسي القديم[2].

وقد أخذت البابوية جانب بيت المقدس في البداية، حيث قرر البابا باسكال الثاني ضرورة ضم كل ما يفتحه بلدوين الأول إلى بطريركية القدس. وكان لاحتجاج بطريرك أنطاكية الشديد وإعرابه عن خشيته من ضياع بيروت وكل إقليم صور من عرشه أن تراجعت البابوية عن قرارها[3]. ولدينا مجموعة الرسائل المتبادلة بين البابوية وبطريركيتي بيت المقدس وإنطاكية في هذا الشأن. وتعكس تمسك كل طرف في مواجهة الأخر بمد نفوذه على إقليم صور.

ولقد كان إقليم صور جديرًا بأن يثير ذلك النزاع، فهو (أي إقليم صور) "مطرانية كل فينقيا والتي تحتل دومًا المرتبة الأولى بين أقاليم سوريا، إما بسبب غناه المبارك الوصف

---

(1) Prawer, J, The Latin Kingdom, European Colonialism in The Middle Ages, Israel, 1972. p.164.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية.- القاهرة: مكتبة الأنجلو، 1975. (ج1، ص325).

(3) Rowe, j.g., The Papacy and Ecclesiastical Province of Tyre, 1100-1180, The John Ryland's Library vol.43, Manchester 1960-61.p.172 .

أو كثرة سكانه"[1]. ولقد ظلت المشكلة حول إقليم صور معلقة حتى بعد وفاة جبلين، بيد أن ذلك لا ينتقص من دوره شيئًا، فإن ما قام به كان له أثره فيما بعد حول التنظيم الكنسي في الإقليم.

لم يحدث تقدم كبير في أمر التنظيم الكنسي خلال بطريركية أرنولف (1112-1118م)، وذلك رغم أنه كان على وفاق مع الملك بلدوين الأول، وقد أمكن لأرنولف بمساندة بلدوين الأول فرض النظام الأوغسطيني على الرهبان الكنسيين بالضريح المقدس[2].

ولقد تمت في عهد جرموند (1118- 1128م) قليل من الإجراءات بشأن التنظيم الكنسي. وظل تنظيم الكنيسة في عهده دون اكتمال. غير أنه استطاع فرض النظام الأوغسطيني في الخليل بعد اكتشاف رفات كل من إبراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام تحت أسوار كنيستها سنة 1119[3]. وكان لتقاعس جرموند عن أداء واجباته الدينية أثره في عدم اكتمال النظام الكنسي. فقد وعد برئاسة حفل نقل رفات الأنبياء الثلاثة إلى داخل الكنيسة، ورغم ذلك لم يفعل شيئًا[4].

واستمر النزاع حول صور في عهد جرموند، وبرغم أن المدينة كانت لا تزال بحوزة المسلمين فإنه قام بتعيين أودو ODO في سنة 1122م رئيس أساقفة لها. ويمكن أن يفسر ذلك المسلك من جانبه بأنه محاولة لتأكيد نفوذه على الإقليم، إلا أن أودو مات قبل الاستيلاء على المدينة. ولم يقم جرموند بتعيين غيره إلا حوالي سنة 1127م، فقد كرس وليم الذي كان مقدمًا بالضريح لذلك النصب، وكان النصر حليف جرموند بقبول البابوية تبعية صور لبطريركية بيت المقدس[5]. ورقيت في عهد جرموند أسقفية الناصرة

---

(1) William of Tyre, Op.cit. Vol. II, p.4 .

(2) Boase, T.S.R, Kingdoms and Strong Holds of The Crusaders, London1971. p.42 .

(3) Prawer, The Latin Kingdom., p.162 .

(4) Hamilton, The Latin Church., p.243.

(5) Ibid, p.67., Richard, The Political Ecclesiastical., p.240.

إلى رئاسة أسقفية وصارت مطرانية الخليل وتم ذلك في نهاية عهده أي سنة 1128م[1].

وحدث قليل من التطور في تنظيم الكنيسة في بداية بطريركية ستيفن الشارتري (1128-1130م)، فقد أمكن له إنشاء أسقفية في سبسطية رغم قلة عدد سكانها وذلك لأن بها مدفن القديس يوحنا المعمدان. وقد كانت تلك الأسقفية تابعة لرئاسة أساقفة قيسارية وأنشئت حوالي سنة 1129م.

ويبدو أن ذلك تم نتيجة التعاون الذي كان بين البطريرك ستفن والملك بلدوين، إلا أن التعاون بينها كان قصير الأجل فقد دب الخلاف بينهما سريعًا مما كان له أثره على مواصلة مسيرة التنظيم الكنسي.

وفي بطريركية وليم الأول (1130-1145م) نجد تنظيما لأوضاع الأسقفيات والمدن الساحلية ففي سنة 1133م أقيم الأسقف بلدوين بكنيسة بيروت وتم تكريس أسقف لاتيني لصيدا، واستقبلت عكا أول أسقف لاتيني لها في سنة 1135م رغم استيلاء الصليبيين عليها منذ سنة 1104م[2].

ويمكن القول؛ أن التنظيم الكنسي اللاتيني كان عملاً بطيئًا وارتبط إلى حد كبير بفتوحات المملكة وتوسعاتها، لقد كان التنظيم في الأساس عملاً سياسيًا أكثر منه احتياجا رعويًا.

وبالفعل فإن التنظيم لم يستقر ويتحدد شكله النهائي إلا قبل عقد تقريبًا من سقوط المملكة على يد صلاح الدين الأيوبي سنة 1187م. ولقد كانت بتراء ثالث الكنائس المطرانية التابعة للقدس في النظام الأرثوذكسي القديم، وقام أماريك Amalric بطريرك بيت المقدس بتعيين جويركوس Guerricus أحد رهبان معبد الرب أول أسقف لبتراء بينما تم تعيين رينالد ابن أخت البطريرك فوشيه بطريرك بيت المقدس أسقفًا للخليل[3].

لقد اتخذ التنظيم شكله النهائي من خلال أربع مناطق كنسية على قمتهم

---

(1) Richard, Op.Cit., p.243.

(2) Prawer, The Latin Kingdom., p.166.

(3) Hamilton, The Latin Church., p.77.

بطريركية القدس ويتبعها رئاسات أسقفية الناصرة، صور، بتراء، بالإضافة إلى أسقفيات تتبع البطريرك مباشرة هي أسقفية (اللد والرملة)، أسقفية بيت لحم وأسقفية الخليل.

وقد دعم ذلك الهيكل الكنسي انتشار العديد من الأبرشيات ذات الشعائر اللاتينية على مدى مناطق المملكة. ومن خلال تلك الأبرشيات أمكن للكنيسة ممارسة واجباتها الرعوية المختلفة. غير أن السواد الأعظم من الجماهير الصليبية قد عاش داخل أسوار المدن أو القلاع[1].

وبعكس الأسقفيات لم تكن هناك أهمية كبري للحدود الرسمية بين الأبرشيات. وقد انتشرت تلك الأبرشيات في المدن والمناطق الريفية. وكان لحجم المدينة وعدد سكانها أثره في مكانة الأبرشية وأهميتها، وبصورة عامة كانت أبرشيات المناطق الريفية أقل شأنًا من أبرشيات المدن، ويرجع ذلك إلى أن المناطق الريفية كانت قليلة السكان، وتشمل إلى جانب اللاتين مسلمين ومسيحيين شرقيين.

وكان لتلك الأبرشيات دورها في خدمة اللاتين وفقًا للشعائر اللاتينية، وتجدر الإشارة إلى أنها لم تكن أماكن للعبادة فقط وإنما عملت على تقديم كافة الخدمات التي احتاجها المسيحي اللاتيني في نواحي عدة من حياته كالعماد والزواج وغيره[2]. لقد كانت الكنائس الكبيرة والكاتدرائيات في المدن والأبرشيات في البلدات الصغيرة والقرى صورة لنظام كنسي لاتيني غربي فوق أرض الشرق.

2- **المنشآت الكنسية:**

ورافق التنظيم الكنسي في مراحله المختلفة اهتماما كبيرًا بتشييد الكنائس أو إعادة بناء وترميم القائم منها من قبل. ولم يكن مستغربًا أن يلجأ الصليبيون إلى تشييد الكنائس بالأرض المقدسة رغم وجود العديد منها، ويرجع ذلك إلى ما كان يحتاج أوربا في تلك

---

(1) Prawer, Op.Cit., p.167.

(2) Hamilton, Op.Cit., p.87 .

الفترة من حماسة دينية جارفة، وقد انتقلت تلك الحماسة مع الصليبيين، كذلك فإنه لسبب أو لآخر تعرضت بعض الكنائس للتهدم(1).

وكان طبيعيًا أن يتجه اهتمام الفرنجة الأكبر نحو كنيسة الضريح المقدس لأنها أكبر وأهم الكنائس بالمدينة المقدسة. وقد وجد الصليبيون الجانب الشرقي من كنيسة الضريح المقدس عند مقدمهم مهدمًا، فقاموا بإعادة بنائها، وصارت في الحال كاتدرائية للبطريرك اللاتيني وألحق بها جماعة الرهبان الكنسيين. ويذكر وليم الصوري أن اللاتين قاموا بتوسيع الكنيسة الأصلية(2).

لقد قاموا بإضافات وأيضًا ببعض أعمال الترميم مثل إنشاء جناح ملحق بالقاعة الرئيسة المستديرة Routunda ومنحه للجوقة. وتمت تلك الإضافات على الطراز الروماني الغربي. وانتهي العمل الذي استمر خمسين عامًا في يوم الخامس عشر من يونيه سنة 1149م في الذكرى الخمسين لغزو المدينة المقدسة(3).

ويعطينا يوحنا وورزبرج صورة للمبني بعد اكتماله بعدد من السنوات وكيفية الزيارة والخدمة القائمة على حراسته فيذكر "أنه مبني دائري الشكل زخرف بالفسيفساء وفي مدخله الشرقي توجد غرفة انتظار، بها بابان من خلال أحدهما يمكن للأشخاص الدخول إلى الضريح، ومن الآخر يخرجون.

كما توجد بتلك الغرفة جماعة حراس الضريح ويوجد بها أيضًا باب ثالث صغير يقود إلى الجوقة. وخارج المبني أي على قمة الضريح، يوجد مذبح بنيت فوقه مظلة مربعة ذات ثلاث حوائط من حديد مشغول في تكوين جميل. ويعرف بمذبح الضريح المقدس"(4).

---

(1) Smail, The Crusaders in Syria., p.124.

(2) William Of Tyre, Op.Cit., Vol. I, p.344 .

(3) Smail, The Crusaders in Syria., p.130.

(4) John of Wurzburg, Description of the Holy Land (1160-1170 A.D.), Trans. by Aubrey Stewart, In. P.P.T.S., Vol. V., London, 1896. p. 36.

ويذكر بنفيستي أن الخطوط العامة للكنيسة لا تزال باقية إلى اليوم[1].

وقد لجأ الفرنجة إلى تحويل المساجد إلى كنائس في أكثر من مدينة مع ما في ذلك من دلالة تعصب واضحة. ففي مدينة القدس قاموا بتحويل مسجد قبة الصخرة إلى كنيسة وبنوا شمالها ديرًا وأطلقوا عليها معبد الرب Templum Domini، ولجأ الصليبيون إلى تغيير معالم الجامع.

ولدينا وصف ثيودريك للهيكل، فيذكر أن الهيكل نفسه كان على شكل مثمن في جزئه الجنوبي، وقد زخرف ذلك الجزء حتى منتصف الهيكل برخام فخيم، ومن المنتصف إلى الكنار زخرف بأعمال الفسيفساء، وفي داخل ذلك الكنار وحول الهيكل بأكمله باتجاه من الشرق إلى الغرب مع مسار الشمس كتبت نقوش أولها: "السلام يكون لذلك البيت إلى الأبد، من الآب الخالد"، وعلى الجانب الثاني "مقدس هيكل الرب" ويمضي ثيودريك في ذكر باقي النقوش حتى الجانب الثامن وفيه كتبت "بيت الرب بُني جيدًا على صخرة ثابتة".

وقام الفرنجة بإقامة عدد من المذابح، ويبدو أن الهيكل استخدم في بعض الواجبات الرعوية مثل العماد. فقد أقاموا به أيضًا أماكن للتعميد في الفناء[2]، وقد اعتلى قبة الجامع صليب ضخم، بيد أن تلك الإضافات أزيلت بأمر السلطان صلاح الدين الأيوبي عند دخول المسلمين القدس[3].

وأنشئت في القدس أيضًا كنائس عديدة منها كنيسة القديسة مريم اللاتينية سنة 1103م، والقديسة مريم العظيمة سنة 1140م، وفي نفس العام أنشئت كنيسة القديسة أن بمساعدة العائلة الملكية وكانت ايفيت Ivette ابنة بلدوين الثاني وأخت الملكة مليسند

---

(1) Benvenisti, Moron, The Crusaders in The Holy Land.- Jeruslam, 1970, p.68.

(2) Benvenisti, Op.Cit., p.7o .

(3) العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، (519-597) تحقيق وشرح وتقديم؛ محمد محمود صبيح، القاهرة 1965، ص37.

Smail., Op.Cit., p.131.

Melisende راهبة من راهبات دير القديسة أن حتى سنة 1144م[1].

وكانت حركة التشييد قائمة على قدم وساق خارج القدس، وفي المدن الأخرى التابعة للمملكة، ففي مدينة بيت لحم قام الصليبيون ببناء دير يعمل وفق النظام الأوغسطيني ورفعت كنيسة بيت لحم إلى كاتدرائية. وكان طبيعيًا أن تمتد إليها يد التجميل والزخرفة بتصميمات من الفسيفساء لا تزال تجمل الحوائط المحيطة بصحن الكنيسة وجناحها 1160م[2]. وقد تأثروا في أعمالهم بالفن البيزنطي، وكان ذلك في سنة 1160م[3].

ومن الواضح؛ أن سياسة الصليبيين تواصلت في مجال تحويل المساجد، ففي الخليل مدينة الأنبياء، والتي استولى عليها الصليبيون بعد قليل من استيلائهم على القدس تم تحويل الجامع الإبراهيمي إلى كنيسة[4].

كذلك كان الوضع في مدينة نابلس، فبالإضافة إلى الكنائس العديدة التي أقامها الاسبتارية تحول جامع النصر إلى كنيسة تتبع الضريح المقدس. ومن بين الكنائس التي شُيدت هناك كنيسة الآلام والقيام The Passiom and Resurrection وقد بُنيت في سنة 1168م، حيث قام رهبان الضريح المقدس ببنائها بموافقة الملك عموري. كما قام الفرنجة بإعادة الحياة إلى الكنيسة البيزنطية القديمة، وأضافوا إليها بعض التجديدات[5].

وفي الناصرة أعاد الصليبيون بناء كنيسة البشارة، وذلك في حوالي الوقت الذي رقيت فيه إلى رئاسة أسقفية أي سنة 1128م، ويبدو أن ذلك التجديد محاولة لجعل الكنيسة على المستوي اللائق بمكانتها التاريخية والتنظيمية. كذلك أعاد الصليبيون بناء

---

(1) Conder, C, R, The Latin Kingdom of Jerusalem.- London, 1897. p. 187, Benvenisti, Op.Cit., p.71.

(2) Benvenisti, Op.Cit., p.160.

(3) Smail, Op.Cit., p.124.

(4) Benvenisti, Op.Cit., p. 161 .

(5) Benvenisti, Op.Cit., p. 165 .

كنيسة اللد، وكانت قد تهدمت، وأضافوا إليها ديرًا[1].

لقد انتشرت الكنائس في كل أنحاء المملكة، وأعيد الحياة إلى كثير من المتبقي منها، وعلى الرغم من عدم وجود كنيستين متشابهتين ضمن ما استحدثه الصليبيون من كنائس، إلا أنه توجد بين تلك الكنائس ملامح مشتركة.

شيدت الكنائس الصليبية من الداخل على النمط الملكي البازيلكي Basillican وفيه صحن الكنيسة الرئيس محاطًا من جانبه بجناح كنسي. ويستثني من ذلك كنيسة الضريح المقدس وكنيسة بيت لحم، رغم أن الأخيرة كانت على الطراز البازيلكي فقد كان بها جناحين على جانبي صحن الكنيسة[2].

وكانت الكاتدرائيات أكثر حظًا في مقاومة الزمن والبقاء إلى اليوم وذلك لصلابتها وقوة بنائها، بينما تعرضت الكنائس والأبرشيات الصغيرة للاندثار. ويعطينا Smail قائمة تحوي مصير تلك الكاتدرائيات التي أمكن لها البقاء ويذكر جبيل والضريح المقدس ضمن تلك الكنائس[3].

وكان لاهتمام الفرنجة بأعمال الزخرفة والتصوير أثره الواضح على الكناس التي شادوها، لقد رسموا اللوحات الجصية والفسيفساء ووضعوا بالكنائس تماثيل بالحجم الطبيعي للمسيح والقديسين، كما نقشوا كتابات من الإنجيل، وبدا واضحًا تأثر الفرنجة بالفن البيزنطي، وربما قاموا بالاستعانة بالفنانين البيزنطيين[4].

3- ثروات الكنيسة ومصادر الدخل:

وكان طبيعيًا أن يكون وراء ذلك التنظيم الكنسي الكبير وحركة الإنشاء والتجديد

---

(1) Daniel, Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in The Holy Land (1106-1107A.D.) Annotated by Sir Wilson, in P.P.T.S., vol. IV, London, (1895). p.71.

(2) Smail, Op.Cit ., p.132 .

(3) Smail, Op.Cit., p.136.

(4) Conder, OP.Cit., pp.188-189.

والترميم في أنحاء المملكة اللاتينية مصادر تمويل كافية، لقد كان ضروريًا بالفعل وجود أكثر من مصدر لتوفير المال اللازم.

وبدايةً نجد أحد الحلول لتلك المشكلة متمثلاً في حقوق السيادة النسبية على المناطق التابعة للأسقفية، كما حدث في منطقة أسقفية اللد، حيث تم تعيين الأسقف روبرت الرويني Robert of Rouen أسقفا لها سنة 1099م، ومنحه مدينتي اللد والرملة والمناطق المحيطة بهما[1]. وكان المصدر الثاني المتاح للتمويل هو تحويل الأوقاف الأرثوذكسية للأسقفيات اللاتينية التي أقيمت محلها.

غير أن ذلك الإجراء كان صعب التنفيذ، فقد كان من الضروري معرفة وتحديد تلك الأوقاف. ففي مدينة القدس لم يكن الأمر هينًا فقد رحل البطريرك الأرثوذكسي قبل ثمانية أعوام في صحبة رهبانه، وذلك قبل استيلاء الصليبيين على المدينة. وكان الأمر أكثر صعوبة في الأسقفيات التي استحدثها اللاتين فلم يكن لها أوقافًا. وفي مثل تلك الأحوال فإن أمراء الفرنجة كانوا مضطرين لمنحها أوقافًا جديدة وبيت لحم مثال لتلك الأسقفيات، فقد منحها الملك بلدوين الأول أوقافًا في الجوار وفي مدينة عكا ومنطقة عسقلان[2].

وكانت الهبات التي تتلقاها الكنائس أفضل مصادر توفير المال، ولأن بعض الكنائس والأديرة كان لها نصيب كبير من الشهرة، فإن نصيبها كان أكثر من الباقيات.

وفي هذا الشأن كانت كنيسة الضريح المقدس أهم وأغنى الكنائس فقد حصلت على أراض داخل المملكة، وفي الأمارات الصليبية الأخرى، وأكثر من ذلك في كل أنحاء أوربا الغربية[3].

وإذا كانت بيت لحم والضريح المقدس قد فازا بنصيب الأسد في مجال الهبات، فإن كاتدرائيات أخرى لم تكن تملك أكثر من حدود أسقفيتها. فقد كانت الناصرة – وهي من

(1) Hamilton, Op.Cit., p.137 .

(2) Ibid, pp.138-140.

(3) Conder, Op.Cit., p.199., Smail., Op.Cit., p.131 .

الأماكن المهمة - لا تمتلك سوى ضياعًا قليلة شرق الجليل، وكان الموقف مشابها في الكاتدرائيات الأخرى ففيما عدا المقاطعة التي تتبع أسقفيتها لم تكن تملك شيئًا كثيرًا[1].

فقد حازت كنيسة صؤر أملاكا هناك، وكانت باقي الكنائس تمتلك الضياع بصفة هبات خارج الكنيسة. لقد كان عزاء الكنيسة اللاتينية في مملكة بيت المقدس عن ضياع القدس تلك الهبات التي كانت لها في عكا والأراضي الجديدة في قبرص وحتى بولندا.

ومهما يكن من أمر؛ فإن الهبات بصفة عامة كانت كثيرة، وتشمل بالإضافة وإلي الأرض أشياء أخرى مثل الزيوت والخمور مثل الزيوت والخمور والمصابيح والقناديل، بالإضافة إلى الممتلكات الشخصية وكان يوصي بها بعد الموت لبعض الكنائس في مقابل الصلوات والدعوات للراحل أو للمانح نفسه[2].

وكانت هبات الحجاج في مواسم الحج واحدة من دلائل التقوى، ومصدرًا من دخل الكنيسة، بل أنها كانت مصدرًا من مصادر دخل المملكة ذاتها، ففي كل عام يقدم الحجاج من الغرب والشرق للمشاركة في الأعياد والاحتفالات الدينية ويمضون الصيف في الأراضي المقدسة، ولقد كان للضرائب التي يدفعونها والمال الذي ينفقونه أثره على اقتصاد المملكة وماليتها[3].

وإذا كانت الصلوات والدعوات أو التقوى دوافع وراء المنح والهبات، فإننا نجد بعض المفاسد في مسلك البعض من رجال الكنيسة تجاه تلك المنح والهبات. فقد كان المفروض كما هو متفق عليه أن يتم تقسيم دخل كل الكنيسة بين الأسقف وأعضاء الكنيسة إلا أنه حدثت بعض التجاوزات في ذلك الصدد، ففي خريف سنة 1101م تلقي البطريرك دايمبرت هدية من روجر أمير أبوليا مقدارها ألف بيزنت على أن تقسم ثلاثة أقسام جزء للقبر المقدس، وجزء للمستشفي والثالث للملك للمساهمة في إعداد الجيش، غير أن دايمبرت احتفظ لنفسه بالمال كله مع ما في ذلك من غبن لحقوق من نص عليهما

(1) Conder, Op.Cit., p.194 .

(2) Ibid, p.169 .

(3) Smail, Op.Cit., p.125., Prawer, The Latin Kingdom., p.167.

المانح[1].

وقد جلب ذلك المسلك السيئ على أصحابه كراهية العامة من أبناء المملكة، فقد كان أرنولف أقل شعبية نتيجة لاهتمامه بأمور عائلته واستخدامه لثروة الكنيسة في ذلك الشأن. فقد رتب زواج ابنة أخته أيما Emma من لورد قيسارية وصيدا يوستاك جارنير، ومنحها أريحا دوطة لها، وكانت تتبع كنيسة القدس[2].

وتذكر أحد الحوليات الكثير من المفاسد الكنسية الناجمة عن استغلال المنح والهبات استغلالاً سيئًا، فتعطينا صورة لحياة فاضحة مليئة بالسكر والمفاسد والانحلال والأعمال المخزية[3].

ولقد كان للكنيسة بالإضافة إلى ما سبق من مصادر للدخل، مصدر أخير وهو العشور. وكانت العشور ضريبة كنسية تفرض على كل مصادر الدخل، ويعني ذلك أنها كانت مفروضة على التجارة والصناعة وكل عوائد الأنشطة المختلفة. وكان المصدر الرئيس والدائم للعشور هو الإنتاج الزراعي، وكان مالك الأرض مسئول عن دفعها، كما أنها مقررة على المسيحيين اللاتين، وقد أعفي منها المسيحيين الشرقيين لأن مثل تلك الضريبة لم تكن معروفة في الشرق[4].

ولقد واجهت الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس بعض المشاكل والصعوبات بشأن تلك الضريبة، أول تلك المشاكل أن الأسقف لا يتلقى عشورًا عن الأراضي التي تملكها كنيسته وتقع في منطقة غير أسقفيته، فعندما وافقت الملكة ميلسند على أن تتم مبادلة

---

(1) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية/ ترجمة: السيد الباز العريني.- بيروت، 1967. (ج2، ص134).

Grousset, Rm Histoire Des Croisades Et du Royaume De Jerusalem, Tom. I, Paris 1943. p.292.

(2) Hamilton, Op.Cit., p.63.

(3) Conder, Op.Cit., p.191 .

(4) Hamilton, Op.Cit., p.145.

أملاك البطريرك ورهبان الضريح المقدس والتي توجد في منطقة كفر تقوع Thecua بتلك التي في بيثاني Bethany فإنهم اضطروا لدفع العشور عن أرض بيثاني للأسقف في بيت لحم، في الوقت الذي لم يتلقوا عشورًا من كفر تقوع(1).

وقد سمحت الكنيسة لبعض الجماعات الدينية ببعض الإعفاءات المحدودة من أداء ضريبة العشور في منطقة القدس. وفعل برنارد أسقف الناصرة نفس الشيء فقام بإعطاء الأسبتارية امتياز مشابه في أسقفيته سنة 1125 م. كما تم إعفاء بعض الأديرة من تلك الضرائب إعفاءً محدودًا(2).

وعلي الرغم من أهمية العشور في تدعيم الهيكل الكنسي اللاتيني، إلا أن الكنيسة رغبة منها في تدعيم الجماعات الدينية لتأخذ دورها على أرض المملكة تساهلت إلى حد ما بمنح الإعفاءات المحدودة، وخير دليل على ذلك أنه في حالة قيام أي جماعة دينية بإنشاء كنيسة على أرضها وبتكلفة منها فإنه تثار مشكلة العشور، وهل تدفع للأسقف أم للكنيسة الجديدة، وغالبًا ما تترك لكنيسة الجماعة الدينية.

كما حظيت الكنيسة في مملكة بيت المقدس، وهي أغنى مالك للأراضي في الأرض المقدسة، بإعفاء من كل ما هو مقرر على الأموال والرسوم(3).

4- دور الكنيسة في الحرب:

ورغم تلك الامتيازات التي حصلت عليها الكنيسة، فإن ذلك لا يعني أن ممتلكاتها كانت معفاة تمامًا من الالتزامات تجاه الدولة، خاصةً وأن المملكة كانت تواجه أعداء يحيطون بها من كل جانب وخاضت حروبًا كثيرة. ويذكر براور أن مستندًا كُتب في الربع الأخير من القرن الثاني عشر تضمن قائمة من المستعدين للعمل كقوة تكرسها الكنيسة للتاج(4).

---

(1) Hamilton, Op.Cit., p.146.

(2) Ibid., p.147 .

(3)ارنست باركر، الحروب الصليبية/ ترجمة: السيد الباز العريني.- القاهرة، 1960. ص81.

(4) Prawer, The Latin Kigdom., p.163.

وشاركت الكنيسة فعلاً في حروب المملكة، وكان ذلك بتوفير خدمة احتياطية طارئة بحجم معقول من الجند الرجالة لا خدمات الفرسان نظرًا لارتفاع تكلفة الفارس. ولقد التزم البطريرك والرهبان الكنسيين بكنيسة القيامة بتقديم خمسمائة جندي، بينما التزم أسقف بيت لحم بتقديم مائتي جندي، كذلك التزم رئيس أساقفة صور بتقديم مائة وخمسين جندي، بالإضافة إلى ما تقدمه بعض الأديرة مثل دير القديسة ماري يوشيفاط ودير جبل صهيون[1].

وعلى الرغم من تكلفة الفارس الباهظة؛ فإن ذلك لم يمنع بعض الكنائس في المملكة من تقديم تلك الخدمة، فقد قامت بذلك كنيستا "اللد والرملة" والناصرة. ففي أسقفية اللد - الرملة كانت الكنيسة ملزمة بتقديم عشرة فرسان لإمرة التاج، وكانت أسقفية الناصرة ملزمة بتقديم ستة فرسان للملك ويرجع ذلك إلى ما حصلت عليه هاتان الأسقفيتان من ميزات خاصة، فقد حصلت كل منهما - كما سبق القول - على إقطاع[2].

غير أن المشاركة الكنسية في حروب المملكة لم تتوقف عند هذا الحد، لقد ساهم البطاركة أنفسهم وبصورة فعالة في حروب المملكة، وشاركوا في أعمال الحصار والمعسكرات، وأظهر بعضهم قدرات في ميدان القتال، بينما كان لمشاركة البعض منهم أثرها في رفع روح القتال لدي المحاربين.

ويخبرنا المؤرخ المجهول حول دور البطريرك في الإعداد للحرب وتجهيز الجند وتهيئتهم للقتال قبل معركة عسقلان، والتي جرت في الثاني عشر من أغسطس سنة 1099م فيقول "عندما حل المساء، نادي البطريرك في الجميع مطالبًا بضرورة الاستعداد في الصباح الباكر للمعركة، كذلك قام بإصدار قرار بالحرمان ضد كل من يفكر في الاستيلاء على شيء من الغنائم قبل انتهاء المعركة"[3].

---

(1) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص498.

(2) Hamilton, Op.Cit., p.136.

(3) Anonymous, The Deeds of the Franks and Other Piligrims to

وشارك رجال الدين في اجتماعات الحرب لمناقشة أمور القتال بل والمشاركة في القتال ذاته، يروي لنا شاهد عيان أحد تلك الاجتماعات "لقد عقد البطريرك والأساقفة وباقي الزعماء اجتماعا عند النهر في ناحية عسقلان، وهناك استولوا على عدد من الحيوانات والثيران والجمال والماشية وغنائم أخرى".

لقد قامت الكنيسة منذ نشأتها في المملكة المقدسة بدورها في ميدان القتال برعاية المحاربين، إلا أنه خلال بطريركية دايمبرت حدثت بعض التجاوزات. فقد ألح الملك بلدوين الأول عليه في طلب منحة من هبات المؤمنين لتمويل الفرسان وجمع فرق جديدة في حربه ضد الجيش المصري (يوليه 1101م)، ورغم حاجة بلدوين الأول للمال فإن البطريرك سمح له بمائتي مارك من الفضة فقط، وأقسم أن ذلك كل ما تحويه خزانة الكنيسة[1].

ويبدو أن ذلك القسم كان باطلاً، فقد كشف خدم دايمبرت بعد رحيله إلى أنطاكية عن مخبأ الكنز الذي كان يحتوي على عشرين ألف بيزنت من الذهب. ولقد قام الملك بتقسيم ذلك المبلغ بين جنده وزاد لهم في الحد، فقد كان يعد لهجوم جديد على الفاطميين[2].

وتجدر الإشارة إلى؛ أن ذلك البطريرك والذي لم يساند بلدوين الأول إلى الحد الذي كان بإمكانه القيام به، فعل ذلك نتيجة ما بينه وبين بلدوين من خلاف. والغريب أن نجده يشارك أمير أنطاكية وبطريركها برنارد الفالنسي، ورئيس أساقفة الرها بندكت في معركة حران سنة 1104[3]، ويرجع ذلك إلى العلاقة القوية التي كانت تربطه بأمير أنطاكية وإيوائه له بها عندما خرج من القدس.

وحرص البطاركة على إثارة حمية المقاتلين، ويتم ذلك من خلال لقاء بين البطريرك والجنود. وفي اللقاء يمضي البطريرك بين صفوف الجند حاملاً الصليب المقدس ليحمي

Jerusalem, ed.by Rosalind Hill, 1962, pp.94-95 .

(1) Grousset, Op. Cit., tom I, p.290.

(2) Ibid, p.292.

(3) Fulcher., Op.Cit., p.166., William of Tyre, Op.Cit. Vol.I, p.450.

المقاتلين الذين على وشك الذهاب إلى الميدان.

ولدينا صورة لما قام به البطريرك ايفرمار قبل بدء معركة لبلدوين مع الجيش المصري: فقد لبس البطريرك عباءته وأخذ بيديه الصليب الذي كان يحمل دومًا في مثل تلك المناسبات بعد كلمة ذكر فيها الجند بأعمال المسيح، طالبهم أن يقاتلوا بشراسة من أجل اسمه، ثم اندفع الجند إلى ميدان القتال بحماسة.

وكان البطاركة يمضون على رأس المقاتلين إلى ساحات القتال، فلقد شارك البطريرك جبلين - رغم كبر سنه - في حملة ضد مودود أتابك الموصل، وذلك أثناء رحلة طويلة مع فرقة ملكية سنة 1110م، وكان يحمل الصليب في مقدمة الجموع[1].

وكان البطريرك جرموند أكثر مقدرة وخبرة في ميدان القتال، ولم يكن يتوقع من رجل الدين أن يضطلع بمهام مثل التي اضطلع بها جرموند، وأبرز من خلالها مواهب عسكرية ذات شأن. فقد شارك جرموند مع الملك في حملة ضد مدينة دمشق في بداية عهده[2].

وكان لما قام به جرموند في "صور" أثره في اتساع رقعة المملكة اللاتينية فقد رتب البطريرك والنبلاء بالمملكة مع البنادقة الذهاب إلى صور وحصارها. وبالفعل قام البطريرك ومعه كل أتباعه بحصار صور في السادس عشر من فبراير سنة 1124م، وكان الملك بلدوين الثاني في الأسر في ذلك الوقت.

وقد طال حصار صور، ويذكر ابن ميسر أن الفرنج ملكوا صور بعد محاصرتها مدة، وتقاصر المأمون عن نجدتهم فأغاثهم ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق، ووصل إلى بانياس وراسل الإفرنج فوقع الاتفاق على أن يتسلموها بالأمان[3].

وتعددت مساهمات جرموند الحربية، فقام بحصار لحصن كان بحوزة جماعة من

---

(1) Hamilton., Op.Cit., p.61.

(2) Hamilton, Op.Cit., p.65.

(3)بن ميسر: أخبار مصر، ج2، تصحيح هنري ماسيه، ط. المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة 1919، ص64.

قطاع الطرق في منطقة صيدا، يسمي بلتسام Belthasem ولكنها كانت المساهمة الأخيرة، فقد "تعرض لعدوى مميتة، وأصيب بأمراض خطيرة"[1].

كذلك فقد شارك وليم بطريرك بيت المقدس في حصار بانياس، ويبدو أنه كان حريصًا على ممارسة واجباته الرعوية أثناء القتال فقد "ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يتلون فيها يتولي خدمتها شيخ شماس منهم، وقد فرش أرضها بالحلفاء والحشيش"[2].

ويبدو أن البطاركة كانوا مضطرين إلى حمل الصليب المقدس لما له من أهمية كذخيرة مقدسة في الحرب. ولم يكن مسموحًا لأحد من صغار رجال الدين بانجاز مثل تلك المهمة، وفي حالة غياب البطريرك يمكن لأي أسقف أن يؤدي ذلك العمل، مثلما فعل إيفرمار، وكان في ذلك الوقت رئيس أساقفة قيسارية فنجده يسعي لرفع روح القتال بحمل – ما يعتقد – أنه الصليب الحقيقي أثناء معركة تل دانيث Tell Danith في سنة 1119م[3].

وتجدر الإشارة هنا إلى؛ أن هناك مَن لم يشارك من البطاركة في حمل الصليب، فلم يقم كل من أماليك أو هرقل بتلك المهمة[4].

ولقد شارك بعض رجال الدين في أعمال القتال الفعلي، ورغم ما يثيره هاملتون في هذا الصدد من جدل حول قوانين الكنيسة في الغرب والتي تمنع الرهبان والأساقفة والقسس من سفك الدماء. فإننا نجد أساقفة يقومون بأعمال قتالية ويصاحبون الجيوش في وقت لم يكونوا مضطرين فيه لذلك، مثلما فعل بلدوين أسقف قيسارية. وجيرارد مقدم طابور وذلك في معركة الرملة سنة 1101م[5].

لقد اهتم رجال الدين على كافة المستويات بحروب المملكة، ويعكس ذلك

---

(1) William Of Tyre, Op. Cit., Vol.I., 39.

(2) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتى، مطبعة جامعة برنستون 1930م، ص86.

(3) J. Richard, The Political and Ecclesiastical., p.102.

(4) Hamilton, The Latin Church., p.129 .

(5) Hamilton, Op.Cit., p.130 .

الاهتمام من جانب الكنيسة بناحية من نواحي الحياة لأبناء المملكة اللاتينية صورة خاصةً لواحد من أهم أدوار الكنيسة اللاتينية في المملكة، ولم تنس الكنيسة أن الصليبية فعلة كنسية.

5- **الواجبات الرعوية:**

ومع اهتمام الكنيسة الكبير بالجانب الحربي فإنها لم تهمل واجباتها الروحية التي هي صميم عملها. ولقد كانت الكنائس بالإضافة إلى أعمال العبادة تؤدي واجبها نحو الحجاج. وكانت كنائس المملكة مزارات مهمة في مواسم الحج، وتسعي إعداد كبيرة من الحجاج القادمين من كل أنحاء الغرب الأوربي لزيارتها والصلاة بها، خاصةً وأنها المناطق التي شهدت حياة وآلام السيد المسيح. وكان للإيمان والتقوى المنتشران في غرب أوربا في ذلك الوقت أثرهما في زيادة عدد الحجاج القادمين إلى بيت المقدس.

غير أن تلك الظاهرة لم تكن قاصرة على أبناء الغرب الأوربي، فقد شهدت المملكة جماعات الحجاج الشرقيين، وقد سجلت كتاباتهم تجاربهم في الحج والأماكن المقدسة التي زاروها، ولدينا رحلة الأسقف دانييل Daniel، أحد الحجاج الروس الذين زاروا الأرض المقدسة فيما بين سنة 107-110م، وقد ذكر المزارات المقدسة التي رآها والشخصيات المهمة التي قابلها في العقد الأول من تأسيس المملكة.

واهتمت المملكة من جانبها بتوفير الأمان للحجاج، وباركت الكنيسة ذلك الموقف. فقد كان الطريق الرئيس من ميناء يافا إلى بيت المقدس عبر سهل الرملة محفوف بالمخاطر، لذلك نظم الداوية قوافل مسلحة لحماية الحجاج[1].

ويبدو أن الاهتمام بأمن الحجاج كان شغل الكنيسة الشاغل، ففي أعلى مستويات التنظيم الكنسي نجد البطريرك يشارك هو ومواطني بيت المقدس بالكامل في بناء حصن منيع لتأمين سلامة الحجاج المارين بمنطقة اللد، وذلك في منطقة بيت نوبا[2].

---

(1) يوشع براور، عالم الصليبيين/ ترجمة: قاسم عبده قاسم.- القاهرة، 1980. ص190.

(2) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, p.58.

صار الحجاج حقيقة قائمة في حياة المملكة اللاتينية، فمع كل ربيع يقدم إلى المملكة أولئك الذين ينوون الاحتفال بالصوم الكبير في الأماكن المقدسة، وقضاء الصيف هناك.

وقد يرجع اهتمام المملكة على وجه العموم بأمن الحجاج وتدبير احتياجاتهم إلى أسباب منها تأمين حركة الحج المتزايدة كل عام، وما تمثله أموال الحجاج التي ينفقونها والضرائب المفروضة عليهم من عنصر هام من عناصر اقتصاد المملكة[1]. واهتم الصليبيون بتوفير كل ما يحتاجه الحجاج، خاصةً وأن من بينهم فقراء كثيرين ربما أنفقوا ما معهم خلال رحلتهم، وكان على الكنيسة أن تقف إلى جانبهم، لذلك فإنه بناء على طلب البطريرك قام بلدوين الثاني برفع الضريبة التي كانت تؤخذ منهم، وكان يعاني منها الفقراء من الحجاج على أبواب القدس[2].

كما عملت المملكة على توفير الخدمات العلاجية للحجاج وذلك من خلال المستشفيات، ولا يعني مصطلح مستشفي في العصور الوسطي دائمًا مكانًا يتلقي المرضي فيه العلاج الطبي، غير أنه وجدت تحت هذه التسمية في المملكة ما لا يقل عن أربعة أنواع من المؤسسات العلاجية المختلفة، مشفى لعلاج المبرصين، وبيوتات للفقراء من المرضي أو المصابين المعدمين، ودور ضيافة للعجزة من الحجاج، وأبناء السبيل.

كما وجدت في القدس عدة مستشفيات ومستوصفات[3]، وكان لمستشفي القديس يوحنا Hospital of St. John الدور الأكبر في العناية بالحجاج عامة والفقراء منهم بصفة خاصة، وكما سبقت الإشارة كانت تلك المستشفي تعمل قبل قدوم الصليبيين حيث كانت تقدم نفس الخدمات في المدينة المقدسة للحجاج اللاتين، بيد أنه وفي حماية ملوك بيت المقدس نمت تلك المستشفي وتعددت خدماتها، وتفرعت منها مستشفيات أخرى في أنحاء المملكة[4].

---

(1) Smail Op.Cit., ،p.125 .

(2) Conder, The Latin Kingdom, p.174 .

(3) Boas ., Jerusalem in The Crusade Time., p.156.

(4) Richard, Hospitals and hospital., p91.

وقد ظل المستشفي الرئيس في القدس صاحب الدور الأكبر في ميدان خدمة الحجاج، وذكر أحد الحجاج ذلك الدور بقوله: "كان يتجمع في المستشفي الملحقة بكنيسة القديس يوحنا المعمدان وفي حجراتها المتعددة عدد كبير من المرضى، رجال ونساء، وأيضًا ناقهين يتماثلون للشفاء ... وعلمت أن عددهم يبلغ حوالي الألفين"[1].

ولا يعني ذلك أن مستشفي القديس يوحنا الوحيدة في ذلك المضمار، فقد قامت إلى جانبها مستشفيات أخرى، أسسها أفراد من ذوي التقوى، أو جماعات دينية مثل المستشفي الملحق بدير ماري يوشفاط، ومستشفي خدمة الحجاج في ميناء عكا[2]، كذلك فقد قام رهبان الضريح المقدس بإنشاء مستشفي لخدمة الحجاج بجوار الضريح وذلك بعد سنة 1099.

وكانت تلك العناية بالحجاج من جانب الدولة والكنيسة من عوامل جذب الحجاج وزيادة إعدادهم، إلا أن مشاركة الحجاج ومتابعتهم للاحتفالات الدينية أو الرسمية يعد عامل آخر لجذب الحجاج إلى مملكة بيت المقدس. فقد كان لتلك الاحتفالات وقع خاص في نفوسهم، بالإضافة إلى أن إجراءات الاحتفالات كانت تتم في أماكنها الطبيعية، وكما وردت في القصص الإنجيلية[3].

وقد تعددت الاحتفالات والأعياد الدينية في المملكة، ويرجع ذلك إلى ما تحفل به المدينة المقدسة من ذكريات ومناسبات دينية خاصة بها، بيد أن أهم تلك الأعياد كان عيد الخامس عشر من يوليه، ففيه تحتفل المملكة بمناسبتين هامتين من تاريخها، الأولى ذكرى الاستيلاء على المدينة المقدسة، والثانية إعادة تجديد كنيسة الضريح المقدس وتكريسها للخدمة، ولم يتم ذلك الاحتفال واعتباره عيدًا من أعياد المملكة إلا بعد خمسين عامًا من تواجد الصليبيين بالأراضي المقدسة.

وكانت وقائع ذلك الاحتفال تجري في أماكنها الطبيعية، ويبدأ بموكب مهيب يتقدمه

(1) John of Wurzburg, Op., Cit., p.44.

(2) Hamilton, Op. Cit., p.362 .

(3) Prawer, The Latin Kingdom, p.176 .

البطريرك، ومع الصباح الباكر يعبر الموكب من كنيسة الضريح المقدس إلى معبد الرب ويتوقف الموكب عند المدخل الجنوبي للصلاة والترتيل، وبعد ذلك يشق طريقه إلى المكان الذي سقط فيه قتلى الفرنجة.

ويقع ذلك المكان عند الجزء الشمالي من أسوار المدينة في الزاوية الشمالية الشرقية حيث يوجد صليب يحدد الموقع الذي اخترق منه أتباع جودفري المدينة المقدسة.

وفي ذلك الموقع يقام قداس يرأسه البطريرك ويشهده رجال الدين والعامة، وتقام صلوات الشكر احتفالاً بتلك الذكرى[1]. ويقدم لنا يوحنا قس ورزبورج جانبًا من ذلك الاحتفال، وصورة لشكله ومراحله وسجلاً للصلاة والتراتيل المقامة في تلك المناسبة[2].

وكان للأعياد الدينية ذات الطقوس الخاصة وقع كبير في نفوس المحتفلين من الحجاج أو المقيمين بالمملكة، وفيما عدا عيد الميلاد الذي كان طبيعيا أن يقام في كنيسة المهد ببيت لحم، فإن كل الاحتفالات كانت تبدأ من كنيسة الضريح المقدس وتنتهي في موقع الأحداث التي تمت فيها مناسبة تلك الأعياد[3]. وكان البطريرك يرأس كل الاحتفالات بنفسه، ولعل مرجع ذلك إلى عدم وجود كرادلة يفوض لهم الأمر[4].

ولقد كانت تلك الاحتفالات تتعرض لما يعكر صفوها، فتقع خلالها بعض المنازعات والمشاجرات، كما أن المحتفلين أنفسهم لم يكونوا دومًا متوافقين فيما يقومون به من مظاهر الاحتفال، ولدينا صورة لمثل تلك الأعمال والتي قام بها الاسبتارية بهدف تعكير صفو مثل تلك الاحتفالات، ففي سنة 1155م، وأثناء أداء البطريرك لبعض الشعائر الدينية قام فرسان الهيئة برمي السهام عليه. كما قاموا بدق أجراسهم حتى لا يسمع صوت

---

(1) Prawer, Op., Cit., p.176.

(2) John of Wurzburg, Op., Cit., pp.70-71.

(3) Prawer, Op., Cit., p.177.

(4) Hamilton, Op. Cit., p. 128 .

البطريرك فولشر داخل كنيسة القيامة ببيت المقدس[1].

ومهما يكن من أمر؛ فإن الأعياد الدينية كان لها بهجتها، رغم كل المنغصات، ومن بين تلك الأعياد "عيد أربعاء الرماد"، ويقع ذلك العيد في أول أيام الصوم الكبير وفيه يترأس البطريرك الاحتفال، وكان الاحتفال يبدأ بمقابلة البطريرك لرهبان الضريح المقدس والأخوة العلمانيين في قاعة الكنيسة، ومع الظهر تدق الأجراس الضخمة داعية الناس إلى قداس في الكنيسة المقامة في موقع الجمجمة Calvary، وينتقل الجميع إلى الضريح المقدس ليلقي البطريرك عظته، وبعد تلقي البركات فإنه يقوم بنثر الرماد فوق رؤوس المجتمعين[2].

وقد احتفل الفرنجة كذلك بعيد العذراء المباركة وتجسد الرب في الهيكل، وكان ذلك الاحتفال يتم في موكب بسيط يبدأ من الضريح المقدس وينتهي في هيكل الرب، وقد حمل المحتفلون القناديل[3].

وكان عيد "أحد السعف" من بين الأعياد المهمة التي يمكن لكل رجال الكنيسة في بيت المقدس المشاركة فيها، لما تتطلبه طقوس ذلك العيد من مساهمة الكنسيين بأكملهم. فقبل أن تشرق الشمس كان رجال الكنيسة والبطريرك ورهبان جبل صهيون وجبل الزيتون ومقدم دير ماريا يوشفاط يذهبون إلى بيثاني، وهي على بعد ميل من القدس، ويأخذون معهم كل الذخائر المقدسة، وكان أقدسها ما اعتقد الفرنجة أنه صليب الصلبوت.

وفي ذات الوقت، فإن سكان المدينة يتجمعون في كنيسة القيامة مع رهبان الضريح. وهناك تتم مباركة سعف النخيل وأغصان الزيتون، ويقود رجال الكنيسة الموكب إلى بوابة يوشفاط، وهناك يقابلون الموكب القادم من بيثاني الذي يتقدمه البطريرك ومعه الصليب المقدس.

---

(1) نبيلة إبراهيم مقامي: فرق الرهبان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.- الجيزة: جامعة القاهرة، 1987. ص106 (أطروحة ماجستير غير منشورة).

(2) Prawer, Op.Cit., 177 .

(3) Ibid, p.178 .

ويتمثل القوم ما فعله السيد المسيح في ذلك اليوم عندما ترك بيثاني ومضي إلى منطقة بيت فاجه Bet Phage وهي مكان في منتصف الطريق بين بيثاني وجبل الزيتون ثم مضي عبر جبل الزيتون إلى مدينة القدس، ودخل عبر البوابة الذهبية وقد فتح بابها عند اقترابه منها تلقائيًا.

ومع قدوم موكب البطريرك، وحسب رواية يوحنا قس ورزبورج فأنه يتقدم بوقار من البوابة الذهبية تلك البوابة التي أغلقت خلف عيسي عليه السلام بعد مروره بها وتفتح البوابة في مهابة للموكب والعامة كلهم - مواطنين أو أغراب - حيث يلقي البطريرك عظته الاحتفالية إلى الناس عند أقدام جبل الزيتون، وعقب انتهاء القداس يقفل الباب ثانية لمدة عام، ولا يفتح إلى في يوم تعظيم الصليب المقدس[1].

وإذ حرص الفرنجة على أداء الاحتفالات الدينية ذات الذكري الخاصة في مواقعها، فإن ذلك الأمر ينطبق على عيد أو احتفال غسل الأقدام عشية الجمعة الحزينة، وذلك اقتداء بالسيد المسيح عندما غسل أقدام حوارييه. وكان الاحتفال المذكور يتم في دير القديسة ماري بجبل صهيون.

وكان المحتفلون حريصون على تقدمة الفقراء في غسل أقدامهم أولاً، وذلك خشية أن يصابوا بالجذام أو المرض الخبيث في أقدامهم، وفي اعتقادهم أن ذلك يحدث خلال الحفل ذاته. وكما هو مقرر فإن الاحتفال يبدأ بعظة البطريرك، ثم رش الزيت المبارك، ثم تأتي الأحواض والمناشف، وقد حملها الرهبان التابعون للضريح المقدس، ويغسلون رؤوس وأقدام الفقراء، ثم يقبلون أيديهم وتوزع الملابس والأحذية[2].

وكان الاحتفال بالجمعة الكبيرة يتم في كنيسة في الموقع الذي يقال أن السيد المسيح صُلب فيه، ويستغرق ذلك الاحتفال يوم الجمعة بأكمله، ويقوم البطريرك ورجال الدين في ذلك اليوم بإقامة القداس والاحتفال[3].

---

(1) John of Wurzburg, Op., Cit., p.19 .

(2) Prawer, Op. Cit., p.178.

(3) Theodrich, Op.Cit., p.20 .

ويعد عيد النار المقدسة Holy Fire أو الضوء المقدس Holy Light من أعظم وأشهر الاحتفالات، وهو عيد خاص بالمدينة المقدسة فعند اقتراب عيد الفصح يتم ترقب الضوء المقدس كالعادة في كل كنائس القدس، وقد توارث اللاتين ذلك الاحتفال عن اليونانيين، وكان ذلك الاحتفال قائمًا منذ عهد شارلمان، وفيه يتم إضاءة واحد من القناديل بالمدينة المقدسة بضوء إلهي كما يؤكد ذلك من شهد الاحتفال.

وتبدأ الاستعدادات للاحتفال بعد صلاة الغروب ليوم الجمعة العظيمة، ففي ذلك اليوم ينظف الضريح المقدس، وتغسل كل المصابيح الموجودة به، وتملأ بالزيت النقي ودون ماء. ثم توضع الفتائل وتترك غير مضاءة. وفي ذات الوقت يتم تنظيف المصابيح والقناديل في كل كنائس القدس[1]، ويمضي دانييل في وصف مظاهر الاستعداد للاحتفال.

ويذكر أنه التقي بالملك بلدوين الأول، وعرف أنه حاج أرثوذكسي شرقي ورحب به وسمح له بوضع مصباحه في ضريح السيد المسيح[2] وربما هدف دانييل من سرد تلك الرواية لبيان تسامح اتباع الكنيسة اللاتينية مع المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين.

وتزدحم الكنيسة صباح يوم السبت المقدس Holy Saturday بجموع مختلفة من الحجاج والأهلين، ومع الساعة الثالثة للنهار يبدأ البطريرك في إدارة القداس مع الرهبان ويكون القداس باللاتينية، ثم يقوم الأرثوذكس اليونانيون بأداء قداسهم باليونانية، ويمضي الاحتفال على نفس النمط حتى التاسعة من اليوم.

ويعني ذلك تأخر وصول الضوء المقدس - فيقوم واحد من اليونانيين حسب رواية فوشيه الشارتري بالصياح بصوت مرتفع حسب العرف القديم Kyrie Eleison وتعني يا إلهنا أنزل الرحمة علينا Lord have Mercy upon us ويردد معه الجميع الهتاف[3]. واستمر ذلك الهتاف وتوارثه اللاتين عندما كانوا يديرون ذلك الاحتفال دون الإغريق.

---

(1) Daniel Op.Cit., p.74.

(2) Ibid, pp.74 -75.

(3) Fulcher, Op. Cit., p.106 .

وإن كنا نجد هتافًا أضافه اللاتين "ساعدنا يا الله" أو "الضريح المقدس".

ومع أصوات المتضرعين فإن البطريرك والأساقفة ينتظرون تلقي النار المقدسة ومعهم باقي رجال الدين، ومعهم الصليب الذي أدمجوا به قطعة خشبية كبيرة يعتقد أنها من الصليب الحقيقي، وكذلك ذخائر القديسين، ويظل الجميع يترقب أن يرسل الله ضوء رحمته إلى القناديل المستعدة لاستقباله، ولا توجد ساعة محددة لظهور النار المقدسة ولا مكان أيضًا، فقد تأتي في أي ساعة وأي كنيسة.

وعند وصول النار المقدسة جرى العرف أن تقدم إلى هيكل الرب قبل أي إنسان، فيما عدا البطريرك الذي يشعل عنده قنديله[1].

لقد كان ذلك الاحتفال قمة احتفالات المملكة، إلا أنه كانت هناك مناسبات احتفالية أخرى، فهناك خميس الصعود Ascdnsionday ويتم الاحتفال بذلك العيد من خلال موكب يمضي إلى جبل الزيتون بعد الصلاة في كنيسة الضريح المقدس، ويتوجه الموكب إلى كنيسة مقامة في المكان الذي يُعتقد بأن السيد المسيح صعد منه، وتوجد آثار مطبوعة في المكان لقدمي السيد المسيح[2].

واختص اللاتين أنفسهم باحتفال ديني خاص أطلقوا عليه عيد العثور على الصليب المقدس، وكان يتم الاحتفال به داخل الكنيسة المقامة في الموقع الذي عُثر فيه على الصليب.

لقد كانت الأعياد والاحتفالات الدينية كثيرة ومتعددة. وقامت الكنيسة بواجبها من احتفاليات تتمثل في إنشاد وترتيل وطقوس خاصة بكل عيد. كما حرص البطريرك على رئاسة تلك الاحتفالات بنفسه. ومهما يكن من سبب وراء حرصه، فإن تواجده على رأس المحتفلين بل ومشاركة أمراء ونبلاء المملكة في ذلك يعكس مدى اهتمام رجال الدين بالجانب الروحي في حياة المملكة اللاتينية، وفي منطقة تحوي الكثير من المقدسات

(1) Theodrich, Theodrich s Description of the Holy Places (circ 1172AD) trans. Aubrey Stewart, In. P.P.T.S., Vol. V., London, 1896. pp.14, 15.

(2) Prawer, Op., Cit., p.181.

المسيحية. ويعكس أيضًا محاولة الكنيسة لربط أبناء المملكة الجديدة بجذورها القديمة، ويفسر ذلك تلك الطقوس التي كانت تتبع، والحرص أن تتم الاحتفالات في أماكنها التي دارت عليها في الماضي وبنفس الخطوات.

ويبدو أن الكنيسة نجحت في ذلك إلى حد بعيد، ودلالة ذلك الإعداد الضخمة المشاركة في الاحتفالات من حجاج أو مواطنين.

وإذا كانت الكنيسة قد أدت واجباتها الرعوية المختلفة فإنها حرصت على الانضباط بين أبناء الكنيسة بمختلف رواتبهم الكنسية، وكان للكنيسة محاكمها الخاصة والمستقلة، وكانت تمارس سلطاتها القضائية على كل رجالها، وكذلك على العلمانيين في حالات ما يتصل بالزواج والشرع والوراثة والهرطقة الدينية والانحرافات الجنسية[1].

وقامت الكنيسة بعقد المجامع للنظر في عزل البطاركة - كما سبق القول - مثلما حدث في حالة دايمبرت وايفرمار، غير أنه يلاحظ أن تلك المجامع كان يرأسها مندوب بابوي يتمتع بتفويض من البابا ذاته.

غير أن تلك المجامع لم تكن تعقد للمحاسبة والمحاكمة فقط، فقد كانت تعقد بغرض الإصلاح. ففي سنة 1120م تم عقد مجمع في نابلس للإصلاح الأخلاقي، وكانت المملكة تمر في تلك الفترة ومنذ ما يقرب من ثلاث أعوام سابقة بظروف عصيبة، فقد تعرضت للهزائم ولبعض الظواهر الطبيعية مثل الزلازل وهجمات الجراد ونقص المؤن الأمر الذي أرجعه رجال الدين إلى غضب الله عليهم وضرورة مصالحته.

ويذكر وليم الصوري أن المجمع الذي عقد في نابلس رأي "ضرورة مصالحة الرب بأعمال التقوى ورفع مستوى الأخلاق والتمسك بالنظام، وصدر عن المجتمعين وبرضاء الجميع خمسة وعشرين مادة لها قوة القانون"[2].

وفي الحقيقة؛ لم تنقطع صلات الغرب بالشرق على مرّ العصور، فقد أمّ الغربيون

(1) باركر الحروب الصليبية، ص80.

(2) William of Tyre, Op.Cit., Vol. I, p.536 .

من أبناء الكنيسة اللاتينية الشرق كسياح وحجاج، وشيّدوا في فلسطين الأديار والمناسك، ولم يشكّل الوجود اللاتيني الغربي سُلطة كنسية مستقلة إلاّ أثناء الحروب الصليبية التي أفرزت مملكة صليبية، وبطريركية لاتينية في فلسطين.

وقد قامت الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس بواجباتها الرعوية وغير الرعوية سواء الحرب أو إدارة البلاد في حالة غياب الملك، وما إلى ذلك بشكل لا بأس به، إلا أنه كان باستطاعتها أداء ذلك بصورة أفضل في حالة ما يتوافر لها من سلطة حرص ملوك المملكة على أن لا تكون كبيرة، بل عملوا على الحد منها، وعلى أن تبقى الكنيسة خاضعة دومًا لسلطانهم.



الدور المجتمعي للعلماء المسلمين

جهاد العدوان الصليبي

1171 -1079

"وقد تجدد من وصول العدو اللعين... ما أذهل كل مرضعة، وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها من سعة، وللإسلام اليوم قدم، إن زلت زل، وهمة إن ملت فإن النصر منه مل... فالله الله ثبتوا ذلك الفؤاد...انظروا إلى أنكم الإسلام كله...واصبروا إن الله مع الصابرين"

القاضي الفاضل (529 – 596هـ)



الدور المجتمعي للعلماء المسلمين
جهاد العدوان الصليبي
1171 -1079

مقدمة

تتعرض هذه الدراسة لدور العلماء المسلمين في جهاد العدوان الصليبي، فمن المعروف أن الأزمات الفكرية نتيجة للصراعات السياسية والحروب، قد تقف حائلاً دون العطاء وإبداع العلماء، لكن على الرغم من تلك الصراعات، فقد برز دور العلماء والمفكرين في المشاركة العسكرية والسياسية إلى جانب دورهم الرئيس في العطاء الديني والفكر الثقافي، فرسموا الطريق لتجاوز وتخطي التحديات، ووضعوا برامج العمل، وجددوا الإحياء والإصلاح، فبرز جهدهم الكبير أمام تحدي الفكر الاسماعيلي والباطني يعظوا الناس ويرشدونهم في أمور دينهم، في علوم التفسير والحديث والفقه وإلقاء الدروس فيها، إلى جانب استفادة العلماء من بعضهم البعض من خلال المحاورات والمناظرات التي انتشرت في المدن الإسلامية كلها. ولم يقتصر دور العلماء على المشاركة العلمية، فقد كانت لهم مشاركات عسكرية، من حمل السلاح والدفاع عن تلك المدن، وتبصير ورفع الروح القتالية للجند.

وترجع أهمية الدراسة إلى أن المعروف عن العلماء اهتمامهم بالجانب المعرفي من علوم دينية أو علوم طبيعية تهتم بالطب والفلك وعلوم البحار، لكن الصفحات التالية تلقي الضوء على مجهود العلماء تجاه العدوان الصليبي على المدن الإسلامية، فلم تقتصر مشاركاتهم على التوجيه، بل تعدت المشاركة الكلامية والوعظية، فقد كان للعلماء مشاركات عسكرية وسياسية ضد العدوان الصليبي، ومنهم مَنْ حمل السلاح دفاعًا عن بيت المقدس، ومدينة انطاكية كما ذكر ابن القلانسي، وابن العديم، وابن الأثير، بأن العلماء شاركوا في حمل السلاح إلى جانب القوات النظامية، يدافعون عن المدن الشامية

ضد الاجتياح الصليبي لها، يقول ابن الأثير: "وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى، وعلمائهم، وعبادهم، وزهادهم، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف"[1].

وعن المشاركة السياسية، فقد عملوا على تطهير المجتمع الإسلامي من الفساد والتيارات الفكرية المنحرفة والتعاون مع السلطة السياسية لنبذ الخلافات والتخلص من الدويلات المتنازعة، وتحقيق وحدة العالم الإسلامي.

1- **الدور العسكري:**

إن الأزمات الفكرية والسياسية والصراعات والحرب وما ينتابها من قلق وخوف ومصاعب ونكبات، لم تقف حائلاً دون ظهور علماء ومفكرين وقادة تميزوا بإبداعهم وعطائهم الفكري والثقافي، ونهضوا في وجه التحديات وتصدوا للبحث عن أسباب تلك الأزمات ووسائل علاجها، يرسمون طريق التجاوز والتخطي ويضعون برامج العمل ويجددون السير نحو الإحياء والإصلاح رغم وعورة الطريق وضخامة التحديات وتواضع الإمكانات، فكانت مبادرة تحت شعار: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ مبادرة في إطار حل شامل ينفذ إلى مختلف جوانب الحياة والإنسان والوجود والتاريخ والمجتمع والاقتصاد.

فأمام تحدي خطر الفكر الاسماعيلي والباطني وخطر العدوان الصليبي، برز علماء الحركة الإصلاحية ومدارسها للتصدي لتلك الأخطار يجاهدون للذود عن الإسلام والمسلمين ويبصرون الناس ويوعونهم في أمور دينهم، ويعظونهم ويرشدونهم بما يجب أن تكون عليه حياتهم ويحثونهم على الجهاد ومصابرة العدو عند اللقاء، ومنهم مَنْ وقف إلى جانب السلطة السياسية يدبرون الأمور، وأهل شورى يشورون عليهم ويرشدونهم في أمور دينهم وفي الجهاد وأحكامه وأخلاقه، ومنهم مَنْ حمل السلاح وشارك الجنود في المعارك يقاتلون دفاعًا عن الدين والأرض.

وفي مجال حمل السلاح والقتال إلى جانب الجند النظامية، نجد أن المتطوعين من

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص283-284.

عامة المسلمين ومنهم العلماء كان لهم دور واضح في الدفاع عن المدن الشامية أثناء حصار الصليبيين لها ثم استيلاءهم عليها، فعلى سبيل المثال: يذكر ابن القلانسي وهو في صدد حديثه عن حصار الجيوش الإسلامية لمدينة أنطاكية بعد استيلاء الصليبيين عليها سنة (491هـ/ 1098م) وخروجهم وهم في غاية الضعف لملاقاة عساكر المسلمين وهم في غاية الكثرة والقوة، وبعد أن تفرقت جموعهم، يذكر أنه: "وقع السيف في الرجال المتطوعين والمجاهدين والمغالبين في الرغبة في الجهاد وحماية المسلمين."[1] وكذلك ذكر ابن العديم أن الصليبيين بعد أن تفرق الجنود النظامية قتلوا "من المطوعة والغلمان والسوقة (أهل السوق) خلق كثير"[2].

وتفصيلاً للحدث يذكر ابن الأثير: "فلما تكامل خروج الفرنج، ولم يبق أحد منهم في أنطاكيا، وضربوا مصافًا عظيمًا، ولى المسلمون منهزمين، .... ولم يضرب أحدًا منهم بسيف، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم، .... وثبت جماعة من المجاهدين، وقاتلوا حِسبة، وطلبًا للشّهادة، فقتل الفرنج منهم ألوفًا، وغنموا ما في العسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدّواب والأسلحة، فصلحت حالهم، وعادت إليهم قوّتهم"[3].

وهنا إشارة واضحة أن عدد من المتطوعة رافقوا الجيوش الإسلامية التي خرجت لاستنقاذ مدينة أنطاكية من أيدي الصليبيين، وأنهم لما تفرقت تلك الجيوش، هم الذين ثبتوا في مواجهة الصليبيين لذا وقع السيف فيهم وقتل منهم خلق كثير، وإذا أضفنا ما أورده الذهبي عن الفقيه أبو عبد الله الحسين بن الحس الشهرستاني قاضي دمشق (ت.491هـ/ 1098م) بأنه: "استشهد بظاهر أنطاكية بيد الفرنج يوم المصاف"[4].

يتضح لنا أن المتطوعة ضمت بين صفوفها عدد من علماء المسلمين شاركوا في حمل

---

(1) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص221.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج2، ص137.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص278.

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج34، ص92، وانظر: سبط ابن الجوزي، المنتظم، ج8، ص314، السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص73، ابن كثير، طبقات الشافعيين، ج1، ص502.

السلاح إلى جانب القوات النظامية يدافعون عن المدن الشامية ضد الاجتياح الصليبي لها، وبحكم زعامتهم لحركة الإصلاح الفكري كانوا بالضرورة قادة المتطوعة المجاهدين (المقاومة الشعبية) من واقع واجبهم الديني ودفاعًا عن الإسلام والمسلمين، وتحريضًا لغيرهم من المسلمين على الجهاد.

وإذا كانت المصادر التاريخية لم تسعفنا للكشف عن حجم الدور الذي قام به العلماء في الدفاع عن مدينة الرُّها وأنطاكيا لصد العدوان الصليبي، فالأمر يختلف في باقي المدن الشامية، إذ يصرح ابن الأثير وهو في صدد حديثه عن استيلاء الصليبيين على مدينة القدس: أن عددًا كبيرًا من العلماء آثروا البقاء في المدينة ليشاركوا في الدفاع عنها، وأن المذبحة التي ارتكبوها بحق أهلها طالتهم حيث يقول: "وقتل الفرنج، بالمسجد الأقصى، ما يزيد على سبعين ألفًا، منهم جماعةٌ كثيرةٌ من أئمّة المسلمين، وعلمائهم، وعبّادهم، وزهّادهم، ممّن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشّريف"[1].

ومرة ثانية، يتضح من التجاء العلماء للمسجد الأقصى وتركزهم فيه، أنهم آخر من استسلم وقاتلوا حتى نالوا شرف الشهادة، كما ذكر عدد من المؤرخين بعض العلماء الذين استشهدوا دفاعًا عن بيت المقدس من أبرزهم: الفقيه المقرئ أبو بكر محمد ابن أحمد بن على الطوسي الصوفي إمام صخرة بيت المقدس (ت.492هـ/ 1098م)[2] قتله الفرنج عند دخولهم المدينة[3].

والفقيه أبو القاسم مكي بن عبد السلام الرميلي المقدسي (ت.492هـ/ 1098م)[4]

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص283-284، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج24، ص133، جوثان ريلي سميث، الحروب الصليبية، ص227.

(2) انظر عنه: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج51، ص89.

(3) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج51، ص89.

(4) انظر ترجمته في: السمعاني، الأنساب، ج6، ص173، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج60، ص254، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص73، الذهبي، العبر في خبر من عبر، ج3، ص334، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص178، السبكي، المصدر السابق، ج5، ص332-333، الأسنوي، طبقات الشافعية، ج1، ص583، اليافعي، مرآة الجنان، ج3، ص155، ابن تغري بردي النجوم الزاهرة، ج5، ص164، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج3، ص398-399.

قاضي القدس، وقد تزعم المتطوعة المجاهدين ضد الصليبيين، ولعب دورًا بارزًا في القتال وتحريض الناس على الجهاد، قال به السمعاني: كان "متقدما محاربا غير فار" وأنه كان "يحمل عليهم حتى يخرجهم من المسجد وقتل منهم"[1]. ثم قبض عليه وسيق أسيرًا، ولمّا علموا أنّه من علماء المسلمين نُودي عليه في البلاد ليُفتدى بألف دينار، فلم يفتديه أحد، فأقدموا على إعدامه، حيث رُمي بالحجارة على باب أنطاكية.[2]

ومن هؤلاء العلماء أيضًا: الشيخ أبو القاسم عبدالجبار بن أحمد بن يوسف الرازي الشافعي (ت. 492هـ/ 1098م)[3]، والقاضي أبو القاسم سعد بن أحمد بن محمد النسوي (ت.492هـ/ 1098م)[4] والفقيه المحدث أبو الحسن كامل بن دسيم بن مجاهد بن عروة بن تغلب بن محمود النصري العسقلاني (ت. 492هـ/ 1098م)[5].

وهكذا بدأ علماء حركة الإحياء والإصلاح استجابة حيوية مدهشة أمام كارثة استيلاء الصليبيين على مدينة القدس وما ارتكبوه من مجازر وحشية بحق أهلها، فانضموا إلى صفوف المتطوعة يشاركون الجنود النظامية في قتال الصليبيين دفاعًا عن المدن الشامية، فبعد أن استولى الصليبيون على الرّها وأنطاكية وسروج ومعرة النعمان، أخذوا يتطلعون إلى بقية مدن الشام، كطرابلس وجبلة وصيدا وصور وعسقلان وحلب ودمشق.

فكان للعلماء في مقاومتهم دور مهم كما هو حال قاضي حصن جبلة[6] وحاكمها

---

(1) السمعاني، الأنساب، ج6، ص173.

(2) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج34، ص138.

(3) السبكي، المصدر السابق، ج5، ص98.

(4) انظر عنه: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج20، ص203، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج34، ص122.

(5) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج50، ص10-12، وانظر حول ذلك: لؤي البواعنة، دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي(الصليبي) للمشرق الإسلامي، دار اليازوري العلمية، الأردن، عمان، (د.ت)، ص210-212.

(6) قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص105.

أبو محمد عبيد الله بن منصور المعروف بابن صليحة[1]، حيث أظهر شجاعة وحنكة في الدفاع عن الحصن لما استهدفه الصليبيون وحاصروه سنة (494هـ/ 1100م)، ويصف لنا ابن الأثير ما قام به بقوله: "أظهر أن السلطان بركيارق قد توجه إلى الشام، وشاع هذا، فرحل الفرنج، فلما تحققوا اشتغال السلطان عنهم، عاودوا حصاره، فأظهر أن المصريين قد توجهوا لحربهم فرحلوا ثانية"[2].

ولم يكتفِ بذلك، بل نجده لما عادوا وحاصروا الحصن مرة ثالثة، يتفق مع نصارى الحصن، ويقرر معهم: "أن يراسلوا الفرنج ويواعدهم إلى برج من أبراج البلد ليسلموه إليهم ويملكوا البلد، فلمّا أتتهم الرّسالة جهّزوا نحو ثلاثمائة رجل من أعيانهم وشجعانهم، فتقدّموا إلى ذلك البرج، فلم يزالوا يرقون في الحبال، واحدًا بعد واحدٍ، وكلّما صار عند ابن صُليحة، وهو على السّور، رجلٌ منهم قتله إلى أن قتلهم أجمعين، فلمّا أصبحوا رمى الرّؤوس إليهم فرحلوا عنه"[3]. وحاصروه مرّةً أخرى، ونصبوا على البلد برج خشبٍ، وهدموا برجًا من أبراجه، وأصبحوا وقد بناه أبو محمّدٍ، ثمّ نقّب في السّور نقوبًا، وخرج من الباب وقاتلهم، فانهزم منهم، وتبعوه، فخرج أصحابه من تلك النّقوب، فأتوا الفرنج من ظهورهم، فولّوا منهزمين وأسر مقدّمهم المعروف بكند إصطبل، فافتدى نفسه بمالٍ جزيلٍ. ثمّ علم أنّهم لا يقعدون عن طلبه، وليس له من يمنعهم عنه، فأرسل إلى

(1) كان والده رئيسها أيّام كان الرّوم مالكين لها على المسلمين، ويقضي بينهم، فلمّا ضعف أمر الرّوم، وملكها المسلمون، وصارت تحت حكم جلال الملك أبي الحسن عليّ بن عمّار، صاحب طرابلس كان منصور على عادته في الحكم فيها. فلمّا توفّي منصور قام ابنه أبو محمّد مقامه، وأحبّ الجنديّة، واختار الجند، فظهرت شهامته، فأراد ابن عمّارٍ أن يقبض عليه، فاستشعر منه، وعصى عليه، وأقام الخطبة العبّاسيّة، وبقي أبو محمّد بها مطاعاً إلى أن سلمها لصاحب دمشق بعد أن ضايقه الصليبيين انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص310-311، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص299، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج34، ص37 .

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص310، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج34، ص37.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص310-311 .

طغتكين أتابك يلتمس منه إنفاذ من يثق به ليسلّم إليه ثغر جبلة، ويحميه ليصل هو إلى دمشق بماله وأهله، فأجابه إلى ما التمس، وسيّر إليه ولده تاج الملوك بوري، فسلّم إليه البلد(1).

وينسحب ذلك على قاضي طرابلس فخر الملك أبي علي بن محمد بن عمار (495-502هـ/ 1101-1108م)(2)، حيث بقيت مدينة طرابلس تقاوم الحصار بقيادته مدة ست سنوات، أظهر شجاعةً وإقدامًا ورأيًا وحزمًا، يقاوم فيها وينكي في العدوّ، ويستظهر عليهم، ويراسل ملوك الأطراف يستنجدهم، وكان حسن التّدبير في الحصار، جيّد المكيدة والمخادعة، حتّى تفانت رجاله، وكلّت أبطاله(3)، وييئس من نجدة السلاجقة، قرر تسليم المدينة، لتسقط كبرى مدن الشام سنة (502هـ/ 1108م)، ولتكون آخر إمارة يؤسسها الصليبيون بعد الرّها وأنطاكية وبيت المقدس(4).

وتُبرز رواية لابن القلانسي دور علماء مدينة صيدا في مقاومة الحصار الصليبي لها سنة (504هـ/ 1110م)، إذ تفيد أن قاضيها وهو من الفقهاء كان يقود حركة المتطوعة المجاهدين من أهل صيدا الذين تولوا الدفاع عنها إلى جانب حاميتها العسكرية، وأنه هو من تولى مفاوضة الصليبيين في طلب الأمان.

حيث يذكر أن أهل صيدا لما يأسوا من نجدة الأسطول الفاطمي المرابط آنذاك قبالة

---

(1) ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج10، ص311، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص226.

(2) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص226-236، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص311- 344، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص311.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص311.وانظر تفاصيل ما قام به ابن عمار في مدافعة الصليبيين: البواعنة، مرجع سابق، ص217-219، آسيا سليمان نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين، الرياض، مكتبة العبيكان، 2001م، ص84-90.

(4) انظر عن سقوط طرابلس: ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص261 -262، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص231-344، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص42-44، فوشية الشارتري، مرجع سابق، ص144-145، وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ص501-511، عبد السلام تدمري، مرجع سابق، ص288-292، سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص298-314.

مدينة صور، وأيقنوا أن لا طاقة لهم بمقاومة الصليبيين، وكانوا قد حاصروا المدينة برًا وبحرًا قاموا "بإخراج قاضيها وجماعة من شيوخها وطلبوا من بلدوين الأول الأمان فأجابهم إلى ذلك"[1].

كما تبرز رواية لابن الأثير دور شيخ من أهل طرابلس قاد مجموعة من المتطوعة المجاهدين في مهمة إحراق ثلاثة أبراج نصبها الصليبيون في حصار مدينة صور سنة (505هـ/ 1111م)، وكانت قد امتنعت عليهم مدة طويلة من الزمن وباءت محاولاتهم لاحتلالها بالفشل بسبب حصانة موقعها وتزويد الفاطميين لها بالإمدادات من حين لآخر.

حيث يذكر: أنه" قام شيخ من أهل طرابلس وضمن على نفسه إحراقها، وأخذ معه ألف رجلٍ بالسّلاح التّامّ، ومع كلّ رجلٍ منهم حزمة حطبٍ، فقاتلوا الفرنج إلى أن وصلوا إلى البرج الملتصق بالمدينة، فألقى الحطب من جهاته، وألقى فيها النّار، ثمّ خاف أن يشتغل الفرنج الّذين في البرج بإطفاء النّار، ويتخلصوا، فرماهم بجربٍ كان قد أعدّها، مملوءةٍ من العذرة، فلمّا سقطت عليهم اشتغلوا بها وبما نالهم من سوء الرّائحة والتّلويث، فتمكّنت النّار منه، فهلك كلّ من به، إلا القليل، وأخذ منه المسلمون ما قدروا عليه من الكلاليب، ثمّ أخذ سلال العنب الكبار، وترك فيها الحطب الّذي قد سقاه بالنّفط والزّفت، والكتّانِ، والكبريت، ورماهم بسبعين سلّةً، وأحرق البرجين الأخرين"[2].

---

(1) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص273-274، وانظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص479-480، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص45-46، ولم يذكر أي منهما أسم قاضيها، آسيا سليمان نقلي، مرجع سابق،:، ص0-91، البواعنة، مرجع سابق، ص220.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص488-489، وانظر ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص286-287، وفيه أن الذي تولى إحراق الابراج "رجل من مقدمي البحرية عارف بالصنعة من أهل طرابلس له فهم ومعرفة بأحوال الحرب"، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص48، وفيه الذي تولى إحراق الأبراج ألف رجل من أهل صور دون ذكر لشيخ أو غيره، آسيا سليمان نقلي، مرجع سابق، ص92-94، البواعنة، مرجع سابق، ص221.

الأمر الذي أدى إلى رحيل الصليبيين وفك الحصار عن المدينة، وقد وصف وليم الصوري مقاومة أهل صور بقوله:" أظهر الصوريون أنفسهم شجاعة ودهاء وكانوا "مهرة في جميع الأساليب، فقد قابلوا كل خطة بواحدة مشابهة"، وكافحوا لصد هجمات الصليبيين وألحقوا بهم أضرارًا وخسائر جسيمة، فأدرك الملك ذلك وأنهكته تلك الخسائر لمدة أربعة شهور، لذا قرر التخلي عن المحاولة مهزومًا دون تحقيق هدفه ورفع الحصار عن المدينة، وعاد إلى عكا ورحل الباقون بتلهف إلى أوطانهم"[1].

ومن العلماء الذين كان لهم دور بارز في جهاد الصليبيين القاضي أبو الفضل ابن الخشاب قاضي حلب، الذي تزعم حركة المتطوعة المجاهدين فيها، وقد أظهر حكمة وبعد نظر وحسن تدبير وكان ذا شخصية مؤثرة لاقت قبولاً لدى أهل حلب وأعيانها حتى أوكلت له مسئولية حفظ المدينة والنظر في مصالحها[2].

ومن ذلك ما قام به في معركة البلاط[3] سنة (513هـ/ 1119م) حيث قادة المتطوعة المجاهدين من أهل حلب وعلمائها والتحق بصفوف الجيش الإسلامي بقيادة إيلغازي بن أرتق، للقاء القوات الصليبية التي جمعها روجر صاحب أنطاكية لغزو نواحي حلب، وأخذ ابن الخشاب وهو حامل سلاحه وراكب على حجر[4] يتنقل بين الصفوف يحرض على القتال وبيده رمح[5] فرآه بعض العسكر من التركمان فازدروه وقالوا: "إنما جئنا من بلادنا تبعًا لهذا المعمم" ! فاحس ابن الخشاب ما في نفوسهم" وأقبل على الناس وخطبهم خطبة

(1) وليم الصوري: مرجع سابق، ص546.

(2) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص269.

(3) مدينة من أعمال حلب بين مرعش وأنطاكية. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص477.

(4) والحِجْرُ: الفرسُ الأنثى، لم يُدخلوا فيه الهاء لأنه اسمٌ لا يُشركُها فيه المذكّر، والجمع أَحْجارٌ وحُجُورَةٌ وحُجُورٌ. وأَحْجارُ الخيلِ: ما يُتّخذُ منها للنّسل. انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (ت711هـ / 1311م)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، 1993م،:مادة (حجر):، ج4، ص170.

(5) ابن العديم، مصدر سابق، ج1، ص271.

بليغة استنهض فيها عزائمهم، واسترهف هممهم...، فأبكى الناس وعظم في أعينهم"[1]
وكتب للمسلمين في هذه المعركة نصرًا مؤزرًا، وذلك أنهم حملوا على الصليبيين حملة رجل واحد.

وأحاطوهم من جميع الجهات وأخذهم السيف من جميع نواحيهم، وكثر القتل فيهم حتى بلغ عدد قتلاهم خمسة عشر ألفًا فيهم قائدهم الأمير روجر وأسروا الباقي فلم ينجو منهم إلا عشرون نفرًا.[2] وقد "كان من جملة أسراهم نيف وسبعون فارسًا من مقدميهم، حملوا إلى حلب وبذلوا في نفوسهم ثلاثمائة ألف دينار فلم يقبل منهم، وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة"[3].

ووصف ابن القلانسي هذا النصر بقوله: "وكان هذا الفتح من أحسن الفتوح والنصر الممنوح لم يتفق مثله للإسلام في سالف الأعوام ولا الأنف من الأيام"[4]، واستبشر الناس بهذا النصر وارتفعت معنوياتهم حتى إنهم اعتقدوا أن الله تعالى أيدهم بملائكة من عنده[5].

ويظهر دور المتطوعة المجاهدين من أهل حلب وعلمائها وأعيانها بقيادة القاضي ابن الخشاب مرة ثانية في الدفاع عن مدينة حلب، حيث دار صراع طويل ومرير حول المدينة ونواحيها وبخاصة بين سنتي (514 – 518هـ/ 1120– 1124م). ونتيجة لهذا الصراع الذي كان بين القوة الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة والموصل في محاولة منهم للاستيلاء عليها، تعرضت المدينة في هذه الفترة لغارات متكررة من قبل الصليبيين[6] وكان أكثرها

---

(1) ابن العديم، مصدر سابق، ج1، ص271. (ولم يأتي بنص هذه الخطبة ولا بمضمونها).

(2) ابن العديم، مصدر سابق:، ج1، ص271–272، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص554.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص555.

(4) ابن القلانسي، تاريخ مدينة دمشق، ص320 .

(5) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص272، آسيا سليمان نقلي، مرجع سابق، ص99–102، البواعنة، مرجع سابق، ص223–225 .

(6) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص332، ابن العديم، المصدر السابق، ص274–292، ابن الأثير،

ضراوة ووحشية تلك التي قام بها جوسلين أمير أنطاكية سنة 517هـ/ 1123م[1].

أضف إلى ذلك؛ تنامي الشعور بالكراهية الدموية بين المسلمين والمسيحيين، وازدياد قوة مشاعر العداء لدي الحلبيين على إثر الفتنة بينهم،[2] ولهذا قوبل كل من بلدوين وجوسلين لما شرعا في حصار حلب في شعبان (518هـ/ 1124م) بعد خروج حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي بن أرتُق تاركًا حلب في حماية خمسمائة من فرسانه إلى جانب أهل حلب للدفاع عنها، وكان "الذي يتولى تدبيرها وهو في مقام الرئاسة القاضي أبو الفضل بن الخشاب"[3]، قوبلا بمقاومة شديدة واستبسال عز نظيره، وحفظوا المدينة لحين وصول النجدة، وكانوا لما ضاق الأمر بهم وقلت الأقوات، ونفد ما عندهم إلى حد أكلوا فيه الكلاب والميتات، وفشا المرض فيهم، سيروا القاضي أبا غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة، ونقيب الإشراف، وأبا عبد الله بن الجلي إلى تمرتاش مستصرخين إليه ومستغيثين.

لكنه لم يلتفت إلى طلبهم لانشغاله بملك مَيّافارِقين ونواحيها، فوجدوا أنفسهم مضطرين إلى طلب حماية الموصل فاستجاب لهم قسيم الدولة آق سنقر البرسقي صاحبها في الحال، وتقدم بسرعة وبسرية تامة حتى أخذ المحاصرين للمدينة على حين غرة في ذي الحجة سنة (581هـ/ 1125م).

وخرج أهل حلب والتقوا قسيم الدولة عند وصوله، وساروا نحو الصليبيين فانسحبوا بدون أي اشتباك منهزمين بين يديه، وهو يسير وراءهم على مهل حتى بعدوا عن البلد وأمر الجيش بالعودة "فجعل القاضي ابن الخشاب يقول له: يا مولانا لو ساق العسكر خلفهم أخذناهم، فإنهم منهزمون والعسكر محيطة بهم ... فقال له: قد كفى الله شرهم وندخل إلى البلد ونقويه وننظر في مصالحه، ونجمع لهم أن شاء الله، ونخرج إليهم

الكامل في التاريخ، ج10، ص610.

(1) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص286-287.

(2) ابن العديم، المصدر السابق، ج، ص288.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص619، ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص292-293.

بعد ذلك[1].

واستمر الفقهاء والعلماء في لعب دور مهم كمتطوعين في جهاد الصليبيين في عهد الدولة الزنكية (1127-1174م)، وكان لهم مشاركة فاعلة في العمليات العسكرية تحت قيادة عماد الدين زنكي وولده نور الدين محمود، ومن مشاركتهم على سبيل المثال: ما أفاد به ابن الأثير أن عددًا كثيرًا من الصالحين والأولياء شهدوا فتح الرُّها،[2] وذكر منهم الفقيه الشيخ أبا عبدالله بن مهران الشافعي[3]، وذكر الذهبي منهم الشيخ أبو بكر بن اسماعيل الحراني الزاهد (ت. 580هـ/ 1184م)[4]، وذكر أنه هو من جرى على فتح الرّها، وأنه يوم الثلمة التي بالرّها ودخل منها المسلمون، صعد فيها وقتل مَنْ كان بها من الفرنج وصعد الناس بعده[5].

ومن ذلك أيضًا مشاركة المتطوعة المجاهدين في الدفاع عن مدينة دمشق، إذ اجتمعوا إلى جانب الأجناد لجهاد الصليبيين[6] لما توجهت حملتهم الثانية لمحاصرتها سنة (543هـ/ 1148م)،[7] وممَنْ ذكر من العلماء الذين شاركوا في صفوف المتطوعة: الفقيه

---

(1) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص292-295، وانظر حول ذلك: ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص337-338، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص623-624.

(2) ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص69، أبو شامة، الروضتين، ج1، ص140.

(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص70.

(4) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج40، ص338.

(5) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج40، ص338.

(6) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص464.

(7) عن الحملة الصليبية الثانية انظر: ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص463، العماد الأصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، ص367، ابن قاضي شهبه: الكواكب الدرية في السيرة النورية، ص128، ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص88، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص129، ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص112، وليم الصوري، مرجع سابق، ص779، مجهول، الحملتان الصليبيتان الأول والثانية: 523

حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن دوناس ابن عيسى الفندلاوي المالكي،[1] وقد كان شيخًا كبيرًا فقيهًا عالمًا زاهدًا صالحًا، خرج راجلا مع أصحابه لقتال الصليبيين، "فلما رآه معين الدين إثر مقدم العسكر ... قصده وسلم عليه وقال: يا شيخ، أنت معذور لكبر سنك، ونحن نقوم بالذب عن المسلمين، وسأله أن يعود، فلم يفعل وقال له: قد بعت واشترى مني، فو الله لا أقلته ولا استقلته، يريد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾،[2] وتقدم فقاتل الفرنج إلى أن قُتل."[3]

وكذلك الشيخ الزاهد أبو بكر عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الرحمن الحلبي الحلحولي[4]، جرى أمره هذا المجرى، تقدم وقاتل حتى قُتل،[5] وغيرهم من الصلحاء

---

(1) ابن عساكر، المصدر السابق، ج74، ص234، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص452، معجم البلدان، ج4، ص277– 278، الذهبي، وسير أعلام النبلاء، ج20، ص209، الذهبي، العبر في خبر من عبر، ج4، ص120، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج37، ص170، ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج5، ص282، ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج4، ص136.

(2) سورة التوبة، ص111.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج11، ص130، وانظر: ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص464، العماد الأصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، ص368، ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج5، ص282، ابو شامة، المصدر السابق، ج1، ص186–187 .

(4) ولد بحلب ونشأ بها، ثم انتقل إلى مصر، وصحب بها الصالحين والزهاد، ثم انتقل بعد ذلك إلى دمشق وسكنها في موضع بظاهر دمشق على فرسخ منها، يقال له: مسجد شعبان. انظر عنه: السمعاني، المنتخب من معجم شيوخ السمعاني، ص984، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج37/ ، ص149، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص290.

(5) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص464، السمعاني، المنتخب من معجم شيوخ السمعاني، ص984، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج37، ص12، اسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص95 وفيه "ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة رضوان الله عليهم يقاتلون للجنة لا لرغبة ولا لسمعة ومن ذلك أن ملك الأمان الإفرنجي لعنه الله لما وصل الشام اجتمع إليه كل من بالشام من الإفرنج وقصد دمشق، فخرج عسكر دمشق وأهلها لقتالهم وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي والشيخ الزاهد عبد الرحمن

والعلماء[1].

وتجدر الإشارة أيضًا إلى مشاركة العلماء لنور الدين محمود ومصاحبتهم له في غزواته لمعاقل الصليبيين في القلاع والمدن الشامية، كما هو الحال في اشتراكهم في فتح بانياس سنة (552هـ/ 1157م)، وهي من الوقائع المشهودة حيث يذكر ابن القلانسي أنه لما سار بجيشه "تبعه بين الأحداث والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين خلق كثير"[2]، وقد ذكر ابن عساكر أن الفقيه أبا الخير صالح بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الكاثي الخوارزمي الصوفي مِمَّنْ شارك في هذا الفتح[3].

هذا ولم تقتصر مشاركة العلماء في جهاد الصليبيين على علماء المشرق فقط، بل ومنذ بدء الحركة الصليبية شارك علماء وفقهاء مغاربة[4] كانوا ضمن جيوش الأفضل بن بدر الجمالي، وأبلوا بلاءً حسنًا[5] وقد ذكر ابن جبير وهو في صدد حديثه عن المكس (الضريبة) الذي يضعه الصليبيون على الحجاج أن "المغاربة أكثر المعترضين في هذا المكس،

الحلحولي رحمهما الله، وكان من خيار المسلمين. فلما قاربوهم قال الفقيه لعبد الرحمن ما هؤلاء الروم، قال بلى قال فإلى متى نحن وقوف؟ قال سر على أسم الله تعالى. فتقدما قاتلا حتى قتلا رحمهما الله في مكان واحد.

(1) السمعاني، المنتخب من معجم شيوخ السمعاني، ص984، وفيه "حارب جماعة من الصلحاء والعلماء ومنعوا الإفرنج عن دخول البلد، فقتلوا مثل: عبد الرحمن الحلحولي، وإمام المالكية الفندلاوي، وغيرهما، والله تعالى يرحم الجميع، ويثيبهم على ما فعلوا من بذل أرواحهم".

(2) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص521، ابو شامة، المصدر السابق، ج1، ص341 .

(3) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج23، ص300 وانظر لؤي البواعنة، مرجع سابق، ص238-239.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص414، ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت614هـ/ 1217م)، رحلة ابن جبير، تحقيق: حسين نصار، القاهرة، 1955م، ص280-281، أحمد مختار العبادي، "دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي"، ضمن بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، ألقيت في ندوة الحضارة الإسلامية (16-20 أكتوبر 1976م) مؤسسة شباب الجامعة، 1997م:81-102

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص414 .

وذلك لمقدمة منهم أحفظت الفرنج عليهم، سببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية، ألزموها رؤوسهم فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم.

وقال الإفرنج: أن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزؤهم شيئًا، فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم فللمغاربة في أداء هذا المكس، سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو يسهله عليهم ويخفف عنته عنهم"[1] وجاء في ابن الأثير: أن وزير مصر أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي "أحسن إلى المغاربة واستعان بمن قاربه منهم على حرب الفرنج"[2] وذكر أن فقيه مغربي من الملثمين (المرابطين) دون أن يذكر اسمه كان "قد حضر مع الأفضل وقعته مع الفرنج، وأبلى بلاءً حسنًا، فلما خالط المصريين خاف العود إلى بلاده، وكان المغاربة يعتقدون في العلويين الاعتقاد القبيح، فقدم بغداد ووعظ بجامع القصر واجتمع له العالم العظيم، ثمَّ عاد إلى دمشق، ولم يكن للمصريّين حربٌ مع الفرنج إلا وشهدها، فقتل في بعضها شهيدًا، وكان شجاعًا فتّاكًا مقدامًا"[3].

2- **الدور السياسي:**

وفضلاً عن انضمام علماء حركة الإصلاح إلى صفوف المتطوعة المجاهدين يتصدون إلى جانب الجيوش الإسلامية للعدوان الصليبي دفاعًا عن المسلمين والدين والأرض، فقد اشتغل عدد منهم في السياسة والإدارة، إذ كان لا بد إلى جانب اشتغالهم في تهيئة الأمة فكريًا وتطهير المجتمع الإسلامي من الفساد والتيارات الفكرية المنحرفة، وإعدادها عسكريًا وتنمية روح الجهاد فيها، والعمل على نبذ الخلافات المذهبية والانقسامات

---

(1) ابن جبير، المصدر السابق، ص274 .

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص414.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص414 .

السياسية وتطهيرها من الفساد المالي والإداري بالتعاون مع سلطة سياسية تعمل على التخلص من الدويلات المتنازعة والكيانات المتصارعة، وتحقيق وحدة العالم الإسلامي وتعبئته في إطار عمل يؤسس إلى تنسيق وتضافر جهود الأمة أفرادًا وقيادةً لمواجهة التحديات الداخلية والخارجية.

وقد بدأ العمل على إعداد السلطة السياسية تلك في حياة الوزير المصلح نظام الملك السلجوقي حينما أشار على السلطان ملكشاه السلجوقي بتولية قسيم الدولة آق سنقر حلب وأعمالها وحماة ومنبج واللاذقية وما معها[1] لما ر أي فيه الصلاح.

وكان آق سنقر من أصحاب السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان ومن أعيان الأمراء ونال منزلة عالية عنده لما رأي من شجاعته وحزمه وسداده، يقول ابن الأثير: "ومن الدلائل على علو مرتبته تلقبه بقسيم الدولة، "وكانت الألقاب حينئذ مصونة لا تعطى إلا لمستحقيها"[2] ويضيف أن قسيم الدولة لما استقر في الشام "ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع البلاد"[3] وأنه: "أحسن الأمراء سياسة لرعيته، وحفظًا لهم، وكانت بلاده بين عدل عام، ورخص شامل، وأمن واسع."[4]

ويقول فيه ابن العديم: أنه لما تولى حلب أول سنة (480هـ/ 1087م) "أحسن فيها السياسة والسيرة، وأقام الهيبة، وجمع الذعار، وأفنى قطاع الطرق، ومخيفي السبل، وتتبع اللصوص والحرامية في كل موضع، فاستأصل شأفتهم. وكتب إلى الأطراف أن يفعلوا مثل فعله لتأمن الطرق وتسلك السبل، فشكر بذلك الفعل وأمنت الطرق والمسالك، وسار الناس في كل وجه بعد امتناعهم لخوفهم من القطاع والأشرار، وعمرت حلب في أيامه بسبب ذلك بورود التجار إليها والجلابين من جميع الجهات، ورغب الناس في المقام بها للعدل الذي أظهره فيهم رحمه الله" وبقيت حلب وأعمالها بيده إلا أن قتل سنة

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص8، ابو شامة، المصدر السابق، ج1، ص96.

(2) ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص6 .

(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص8 .

(4) ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص15، وانظر ابن العديم، المصدر السابق، ج4، ص1955.

(487هـ/ 1094م)[1].

وبعد قتل آق سنقر نجد القاضي بهاء الدين أبو الحسن على بن القاسم بن المظفر ابن على بن القاسم الشهرزوري (ت.532هـ/ 1137م)[2] يعمل على تولية ابنه عماد الدين زنكي الموصل وأعمالها، وذلك أنه لما توفي عز الدين مسعود بن آق سنقر البرسقي سنة (521هـ/ 1127م)[3] تولى بعده أخوه الأصغر، وقام بتدبير أمره الأمير جاولي أحد أمراء آق سنقر البرسقي ومستحفظ قلعة الموصل ومتولي أمرها[4] فطمع جاولي في ولاية

---

(1) ابن العديم، المصدر السابق، ج4، ص1954، وانظر عن قسيم الدولة: ابن العديم، ج1، ص221-223، 226-227، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص196-197وفيه: "وفي هذه السنة (480هـ/ 1184م) تقررت ولاية حلب للأمير قسيم الدولة اق سنقر من قبل السلطان ملك شاه أبي الفتح ووصل إليها وأحسن السيرة فيها وبسط العدل في أهليها وحمى السابلة للمترددين فيها وأقام الهيبة وانصف الرعية وتتبع المفسدين فأبادهم وقصد أهل الشر فأبعدهم وحصل له بذلك من الصيت وحسن الذكر وتضاعف الثناء والشكر ما إخباره مذكور واجاره فيه منشور فعمرت السابلة للمترددين من السفار وزاد ارتفاع بالبلد بالواردين بالبضائع من جميع الجهات والأقطار" الصفدي، الوافي بالوفيات، ج9، ص181، ابن خلكان، المصدر السابق، ج1، ص241، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص129.

(2) انظر عنه: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج43، ص136، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج36، ص288، ابن الجوزي، المنتظم، ج10، ص75، ج17، ص331، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص49-50، ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج4، ص100، السبكي، المصدر السابق، ج7، ص288.

(3) انظر اخباره: ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص341، 344، العظيمي، تاريخ حلب، ص376-377، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص643، ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص32، ابن العديم، زبدة المصدر السابق، ج1، ص264.

(4) البرسقي: هو الأمير أبو سعيد سيف الدين آق سنقر بن عبد الله البرسقي كان على شحنكية بغداد زمن السلطان محمد بن ملكشاه وفي سنة (507هـ/ 1113م) ولاه السلطان محمد الموصل قتل على يد الباطانية سنة (520هـ/ 1126م) والأمير جاولي هذا مستحفظ قلعة الموصل ومتولي أمرها من قبل البرسقي انظر عنه ابن الجوزي، المنتظم، ج9، ص254، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10،

الموصل وحدثته نفسه بتملكها.

فأرسل إلى السلطان القاضي بهاء الدين أبو الحسن الشرزوري والأمير صلاح الدين محمد الياغيسياني حاجب آق سنقر البرسقي، يطلب أن يُقرّر البلاد على ولد البرسقيّ، وبذل الأموال الكثيرة على ذلك، وكانا يخافان جاولى ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه، وفي بغداد اجتمعا مع الأمير نصير الدين جقر بن يعقوب الهمذاني أحد أصحاب عماد الدين زنكي وقررا أن جاولي لا يصلح لحفظ البلاد إزاء خطر العدوان الصليبي، واتفقا أن يطلبوا البلاد لعماد الدين زنكي، عندئذ اجتمع القاضي بهاء الدين الشهرزوري والأمير الياغي سياني بوزير السلطان[1] وقالا: "قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج عليها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم، وكان البرسقي يكف بعض عاديتهم، فمنذ قتل ازداد طمعهم، وهذا ولده طفل، ولا بد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها، وقد أنهينا الحال إليكم لئلا يجرى خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين فنحصل نحن بالإثم من الله تعالى واللوم من السلطان."[2] فرفع الوزير قولهما إلى السّلطان، فاستحسنه، وشكرهما عليه، وأحضرهما واستشارهما فيمن يصلح للولاية، فذكرا جماعةً، منهم: عماد الدّين زنكي، وعظما محله أكثر من غيره، وبذلا عنه تقرّباً إلى خزانة السّلطان مالاً جليلاً، فأجاب السّلطان إلى

ص633-635، ابن خلكان، المصدر السابق، ج1، ص242، ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج5، ص230.

(1) هو شرف الدين أنوشروان بن خالد (ت. 532هـ/ 1137م). انظر ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية:35، وعنه انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج10، ص77-78، ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج11، ص70-71، عماد الدين الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص104-106و140-142، ابن خلكان، المصدر السابق، ج4، ص67، ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج5، ص261.

(2) ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص35، وانظر له الكامل في التاريخ، ج10، ص644، ابو شامة، المصدر السابق، ج1، ص116 .

توليته، لِما يعلمه من شهامته وكفايته وعقله لِما تولاه، فأحضره وولاه البلاد كلّها، وكتب منشوره بها[1].

ولما استقر الأمر له أقام في الموصل يصلح أمورها ويقرر قواعدها، وفي شأن القاضي الشهرزوري واعترافًا بالجميل منه عينه قاضي قضاة بلاده جميعًا وما يفتحه من البلاد. وكان على حد قول ابن الأثير: "أعظم الناس منزلة عنده وأكثرهم انبساطًا معه وقربًا منه"[2] وزاده في أملاكه، واقطاعه، وكان يحترمه ويثق فيه وفي آرائه وعلمه يستشيره في معظم أمور الدولة المهمة، "ولا يصدر إلا عن رأيه"[3].

ومن العلماء الذين كان لهم دور في أمور السياسة ويتمتعون بحسن التدبير وبعد النظر، ووقفوا إلى جانب السلطة السياسية يشيرون عليهم ويساندوهم في تقرير قواعد الدولة، وما يجب أن تكون عليه لمواجه الأخطار التي تهدد الإسلام والمسلمين: القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن المظفر ابن على بن القاسم الشّهْرَزوري الفقيه الشافعي (ت. 572هـ/ 1176م).

قال فيه الذهبي عن ابن عساكر: كان أديبًا، شاعرًا، فكه المجلس، يتكلّم في الأصول كلامًا حسنًا، ووقف وقوفًا كثيرة، وكان خبيرًا بالسياسة وتدبير الملك،"[4] ووصفه ابن القلانسي بقوله: "وهو المشهور بالتقدم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام وشروط استعمال الإنصاف والعدل والنزاهة عن الإشفاف وتجنب الهوى والظلم وحكم بين الرعايا بأحسن إفصال في الحكم"[5].

وُلي قضاء الموصل واستخدمه زنكي سفيرًا يرسله في المهام الصعبة، وكان كثيرًا ما

(1) ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص35، وانظر له الكامل في التاريخ، ج10، ص644، أبو شامة، المصدر السابق، ج1، ص116 .

(2) ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص35 .

(3) ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج10، ص645 .

(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص58.

(5) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص549.

يتردد في الرسائل بينه وبين الخليفة والسلطان السلجوقي[1]، ومن ذلك على سبيل المثال سفارته للسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه (527-547هـ/ 1133-1152م)، لما حصل الخلاف بينه وبين الخليفة الراشد بالله أبو جعفر المنصور العباسي (529-530هـ/ 1134-1135م). وسار على رأس جيشه إلى بغداد وحاصرها، فاضطر عماد الدين زنكي وكان آنذاك في بغداد إلى جانب الخليفة، على الانسحاب إلى الموصل مما مهد الطريق أمام السلطان لدخول بغداد الذي قام بدوره بحضور القاضي والشهود والفقهاء بخلع الراشد، وبيعة أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله ولقب المقتفي لأمر الله (530-555هـ/ 1134-1160م)[2].

عندئذ حين استقرت الخلافة للمقتفي أرسل عماد الدين زنكي القاضي كمال الدين هذا رسولاً إلى بغداد ليقرر الأمر بينه وبين الخليفة الجديد، السلطان مسعود فتم الأمر على ما أراد "واستحلف السلطان للشهيد (عماد الدين زنكي) واستنزله عما في نفسه منه"[3] وينقل لنا ابن الأثير على لسان كمال الدين ما جرى معه في هذه السفارة، قائلاً: لمّا حضرت الدّيوان قيل لي: تُبايع أمير المؤمنين؟ فقلت: أمير المؤمنين عندنا في الموصل وله في أعناقِ الخلق بيعةٌ مُتقدّمةٌ... وأنا رجلٌ فقيهٌ قاضٍ، ولا يجوز لي أن أُبايع إلا بعد أن يثبت عندي خلع المُتقدّم. فأحضروا الشّهود، وشهدوا عندي في الدّيوان بما أوجب خلعه، فقلت: هذا ثابتٌ لا كلام فيه، ولكن لا بدّ لنا في هذه الدّعوة من نصيبٍ، لأنّ أمير المؤمنين قد حصل له خلافة اللّه في أرضه والسّلطانِ، فقد استراح ممّن

(1) أنظر عنه: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج15، ص31، العماد الأصفهاني، خريد القصر (قسم شعراء الشام:، ج، ص323، ابن الجوزي، المنتظم، ج10، ص268، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص180، ابن خلكان، المصدر السابق، ج4، ص241، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج21، ص57، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، ص331، السبكي، المصدر السابق، ج6، ص117.

(2) انظر حول ذلك: ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص403، ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص305، العماد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص166، ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج11، ص40 .

(3) ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص54 .

كان يقصده، ونحن بأيّ شيءٍ نعود؟ فرفع الأمر إلى الخليفة"، فأمر له بإقطاع من خاصته، "ويُزاد في ألقابه، وقال: هذه قاعدةٌ لم يسمح بها لأحدٍ من زعماء الأطراف أن يكون لهم نصيب في خاصّ الخليفة. فبايعت وعدت مقضيّ الحوائج قد حصل لي جملةٌ صالحةٌ من المال والتّحف"[1].

ومنها سفارته التي أرسله فيها عماد الدين زنكي إلى السلطان مسعود سنة (532هـ/ 1138م)، يستنجد به ويطلب أن يمده العساكر، لمواجهة حملة الإمبراطور البيزنطي حنا كومنيون (512-538هـ/ 1118-1143م) على بلاد الشام قاصدًا حلب، "فمضى إلى بغداد، وأنهى الحال إلى السّلطان، وعرّفه عاقبة الإهمال، وأنّه ليس بينه وبين الرّوم إلا أن يملكوا حلب وينحدروا مع الفرات إلى بغداد".

فلم يستجب له السلطان، فجعل الناس يثورون من مسجد القصر ومسجد السلطان ويتجهون إلى دار السلطان وهم يصيحون وإسلاماه، وادين محمّداه، عندها أمر السلطان بتجهيز العسكر والسير مع القاضي الشّهْرَزوري، فبينما هم يستعدون للرحيل وصل كتاب عماد الدين زنكي يخبره برحيل الروم وأن لا يصحب من العسكر أحدًا، فكان عليه إقناع السلطان بعدم مسير العسكر إلى الشام، وقد نجح في ذلك رغم رغبة السلطان بإنفاذ العسكر إلى الشام بقصد تملكها "بعد الجهد وبذل الخدمة له ولأصحابه"[2].

ولما خلف نور الدين محمود والده عماد الدين على الشام، وفد عليه كمال الدين سنة (550هـ/ 1155م) للخدمة في دولته، وكان نور الدين الذي يصفه المؤرخون بالتقوى

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص44-45

-Hillen brand carole, Thecrusades Islamic perspectives, Edinburgh university press, 2006. P.117-120.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص58-59، وانظر ذلك وعن حملة الروم: ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص416-418، ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص55 ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص79، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص108-109، رنسيمان، مرجع سابق، ج2، ص348-349 .

والورع، وأنه محدث قد سمع الحديث واسمعه وجمعه[1]، - كما أسلف - سار على نهج أبيه ووجد أن بناء جبهة إسلامية قوية وموحدة لا تكون إلا بتضافر جهود القيادات الفكرية والسياسية وتكاملها.

فحرص على احترام وتقدير العلماء والتقرب منهم وحضور مجالسهم العلمية[2] ومشاركتهم في الرأي في الأمور الإدارية والسياسة والعسكرية حتى احتل العلماء المختصين في مجلس الشورى لديه المنزلة الأولى.[3] فلما وفد عليه كمال الدين، بالغ في احترامه[4] وولاه قضاء دمشق سنة (555هـ/ 1160م)،[5] ثم نظر الأوقاف ونظر الخزنة والديوان مع أمر المساجد والمدارس والحسبة، وصار له قاضي القضاة في بلاد الشام، وتقدم عنده وترقى إلى درجة الوزارة ولم يكن أيًا من أمور الدولة النورية يخرج عنه، فكان صاحب القلم والسيف[6].

وفضلاً عن ذلك؛ كان سفيره إلى بغداد، إذ أرسله في سنة (568هـ/ 1172م) إلى الخليفة، وحمله رسالة مضمونها بذل الطاعة والخدمة للخلافة العباسية، وأعلمه "بما هو عليه من جهاد الكفّار، وفتح بلادهم، ويطلب تقليدًا بما بيده من البلاد، مصر والشّام والجزيرة والموصل، وبما في طاعته كديار بكرٍ وما يجاور ذلك كخلاط وبلاد قلج أرسلان، وأن يعطى من الإقطاع بسواد العراق ما كان لأبيه زنكي فأكرم كمال الدّين ... وأجيب إلى ما التمسهُ".

---

(1) ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية، ص56، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص278-281، أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص312، ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص165.

(2) سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، ج8، ص313-314.

(3) ابن قاضي شهبة الكواكب الدرية، ص51-53، حسن مؤنس، نور الدين محمود، ص404-405.

(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج21، ص51.

(5) ابن القلانسي، المصدر سابق، ص549 .

(6) ابن خلكان، المصدر السابق، ج4، ص242، ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج6، ص79، ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص49.

هذا وتفيد بعض الإشارات في المصادر التاريخية أن عددًا من العلماء كان لهم دور سياسي مع نور الدين محمود، ومن ذلك إشارة ابن رجب، عن القاضي أبي المعالي وجيه الدين أسعد بن المنجا بن البركات بن المؤمل التنوخي (ت.605هـ/ 1208م)[1]، التي تضيف إلى عمله في التدريس والقضاء أنه كان له اتصال بالدولة وخدمة السلاطين[2].

وكذلك النحوي الأديب أبو الحسن شمس الدين على بن بردواق بن زيد بن الحسين بن سعيد بن عصمة بن حمير الكندي البغدادي (ت.565هـ/ 1169م)[3]، يذكر أنه حظي بمكانة عالية عند نور الدين[4]. وينطبق ذلك على الفقيه أبي الفضل تقي الدين حامد بن محمود بن حامد بن أبي عمرو الحراني (ت. 569هـ/ م1173م) صحب الإمام عبد القادر الجيلاني ودرس عليه، ثم ذهب إلى دمشق حيث اتصل بنور الدين محمود فولاه التدريس والقضاء والمظالم في حران، وكان قد قدم من بغداد في حوائج لنور الدين[5].

وكذلك الفقيه زين الدين على بن إبراهيم بن نجا الواعظ الأنصاري الدمشقي (ت.599هـ/ 1202م) وهو أحد رجال حركة الإصلاح، درس على يد الشيخ عبد القادر الجيلاني وقد لعب دورًا استخباراتيًا في المفهوم الحديث، حيث أرسل إلى مصر ليستطلع أحوالها ويستوضح عن إمكانية إرسال حملة إلى مصر[6]، وأن يتقرب من رجال الدولة

---

(1) انظر عنه: ابن العديم: المصدر السابق، ج4، ص1580، ابن رجب، المصدر السابق، ج3، ص98، الذهبي: العبر في خبر من عبر، ج3، ص141.

(2) ابن رجب، المصدر السابق، ج3، ص101.

(3) ابن رجب، المصدر السابق، ج2، ص234-235، وانظر ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج6، ص357.

(4) ابن رجب، المصدر السابق، ج2، ص235.

(5) ابن رجب، المصدر السابق، ج2، ص285، ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج6، ص392.

(6) التدافي، قلائد الجوهر، ص33، ابن رجب، المصدر السابق، ج2، ص226، المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص265، ماجد عرسان الكيلاني، جيل صلاح الدين، ص281.

لينال حظوة في البلاط الفاطمي، فيطلع عن قرب على أسرار الدولة ومواطن الضعف والقوة فيها[1].

ومن العلماء الذين اشتغلوا في خدمة الدولة النورية: الفقيه والكاتب عماد الدين أبوعبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني (597هـ/ 1201م) قدم دمشق سنة (562هـ/ 1166م) فنوَّه بذكره القاضي كمال الدين الشّهْرَزوري عند السلطان نورالدين محمود، فرتبه منشئًا في الديوان سنة (563هـ/ 1167م)[2] فأجاد فيها وكان ينشئ بالفارسية أيضًا ويجيد إجادته بالعربية، وقد علت منزلته عند نور الدين، واعتمد عليه في خواص أسراره[3]، وأرسله لثقته به سنة (566هـ/ 1170م) إلى بغداد رسولاً إلى الخليفة المستنجد (555-566هـ/ 1160-1170م)[4]، ثم فوض إليه التدريس في المدرسة النورية (فقيما بعد العمادية) سنة (567هـ/ 1171م)[5]، وولاه سنة (568هـ/ 1172م) إضافة إلى كتابة الإنشاء الإشراف، على الديوان.

ولما ندب نور الدين مستوفي ديوانه خالد القيسراني[6] ليمضي إلى مصر ويطالب ويقتضي المستحقات عليها ويرتب أعمالها وأمور ديوانها، استناب العماد ليقوم

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج3، ص265، ماجد عرسان الكيلاني، مرجع سابق، ص281.

(2) البنداري، قوام الدين الفتح بن علي (من مؤرخي ق7هـ/ 13م)، سنا البرق الشامي، مختصر لكتاب البرق الشامي لعماد الدين الاصفهاني، تحقيق: فتحية النبراوي، مصر، مكتبة الخانجي، 1979م، ص22، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج19، ص14، العماد الأصفهاني، خريدة القصر (قسم شعراء الشام)، ج2، ص35، ابن خلكان، المصدر السابق، ج5، ص148.

(3) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج19، ص14، ابن خلكان، المصدر السابق، ج5، ص148.

(4) البنداري، المصدر السابق، ص63، ابن خلكان، المصدر السابق، ج5، ص149.

(5) البنداري، المصدر السابق، ص63، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج19، ص4، ابن خلكان، المصدر السابق، ج5، ص149.

(6) هو الموفق خالد بن محمد بن نصر بن صغير بن القيسراني الرئيس أبو البقاء الكاتب (ت588هـ/ 1192م). انظر عماد الدين، خريدة القصر (قسم شعراء الشام)، ج1، ص125، ابن العديم، المصدر السابق، ج7، ص3096، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج13، ص282.

بالاستفياء مكانه، فجمع الإنشاء والإشراف والاستفياء[1] واستمر بتولي هذه الأعمال حتى وفاة نور الدين في شوال سنة (569هـ/ 1174م)[2].

وهكذا أمام كارثة استيلاء الصليبيين على مدن العالم الإسلامي وما ارتكبوه من مجازر وحشية بأهلها الذي كان له صدى واسع النطاق ودوي هائل في العالم الإسلامي، أظهر العلماء حيوية مدهشة ونهوضًا فكريًا ووجدانيًا يسابق الكارثة، يدفعون الأمة إلى طريق تحدي الأزمة والعمل والتماسك والجهاد لتجاوز الكارثة وتخطيها. رافضين الاستسلام وأن يقال أن الأمة الإسلامية بما تمتلك من مقومات القوة وعناصر الثبات وكثرة العدد ورحابة الأرض انهزمت أمام عدو غاصب صغير، أو أنها انهزمت أمام رواسبها ونزعاتها وشهواتها فلا تستطيع تماسكًا ولا نهوضًا، وقد ظهر نتاج هذا النهوض، أولاً زمن نور الدين محمود بالقضاء على الدولة الفاطمية وتوحيد بلاد الشام ومصر، وفي زمن صلاح الدين الأيوبي وخلفائه بإنهاء الوجود الصليبي.

يتضح الآن أن العلماء المسلمين كان لهم دور مهم من الناحية العسكرية حيث شاركوا الجند في جهادهم ضد الصليبيين، وذلك بحمل السلاح والجهاد معهم دفاعًا عن مدينة انطاكية، وثابتهم في القتال حسبةً وطلبًا للشهادة، وكذلك من خلال ثباتهم صبرهم عند الشدائد مما جعل الجند يتخذوهم قدوة لهم.

كما آثر العلماء البقاء في مدينة القدس دفاعًا عنها ضد الصليبيين وقُتل منهم عدد كبير، وكذلك دفاعهم عن المسجد الأقصى وتركزهم فيه، وكانوا آخر من استسلم، وقاتلوا حتى نالوا شرف الشهادة، ومنهم الفقيه المقرئ أبو بكر محمد بن أحمد بن على الطوسي الصوفي إمام صخرة بيت المقدس (ت. 492هـ/ 1098م) قتله الفرنج عند دخولهم المدينة. والفقيه أبو القاسم مكي بن عبدالسلام الرملي المقدسي قاضي القدس، تزعم المقطوعة المجهدين ضد الصليبيين وحرض الناس ضد الصليبيين، ومنهم أيضًا

---

(1) البنداري، المصدر السابق، ص69، ابو شامة، المصدر السابق، ج2، ص238 .

(2) ابو شامة، المصدر السابق، ج2، ص309، ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص262 .

الشيخ أبو القاسم عبدالجبار بن أحمد الرازي الشافعي، والقاضي أبو القاسم سعد بن أحمد بن محمد النسوي، والفقيه المحدث أبو الحسن كامل بن دسيم بن مجاهد النصري العسقلاني، وماتوا في السنة نفسها 492هـ.

ومع دورهم العسكري لا يخفى دورهم السياسية حيث انضم العلماء إلى معركة الإصلاح، وعملوا على إنهاء الانقسامات السياسية، ونبذ الخلافات المذهبية، وتطهير المجتمع الإسلامي من الفساد. وكذلك الإعداد للسلطة السياسية في حياة الوزير المصلح نظام الملك السلجوقي حينما أشار على السلطان ملكشاه السلجوقي بتولية قسيم الدولة آق سنقر (حلب)، فأحسن فيها السياسة والسيطرة وأقام الهيبة، وأفنى قطاع الطرق وتتبع اللصوص والحرامية، فاستأصل شأفتهم إلى غير ذلك حتى عمرت حلب في أيامه حيث ازداد وفود التجار إليها من جميع الجهات، ورغب الناس في الإقامة بها للعدل الذي ظهر فيها.

فن التفاوض الأيوبي الصليبي
الموقف الدبلوماسي

1191- 1192

"القدس متعبّدنا ما ننزل عنه ولو لم يبقى منا واحد"
ريتشارد قلب الأسد (1157 – 1199م)

فن التفاوض الأيوبي الصليبي

الموقف الدبلوماسي

1191– 1192

مُقَدِّمة:

كانت معركة حطين في 4 يوليو 1187م/ 583هـ واسترداد المسلمين بعدها لبيت المقدس بمثابة ضربة قاصمة للكيان الصليبي في بلاد الشام الذي بدأ في الانهيار ذلك لأن المدن الصليبية كانت تتهاوى واحدة تلو الأخرى في يد المسلمين. ولهذا حشدت أوربا قواتها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وذلك في صورة حملة صليبية جديدة وهي المعروفة بالحملة الصليبية الثالثة. وقد قاد هذه الحملة ثلاثة من أبرز ملوك وأباطرة أوربا في ذلك الوقت وهم فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ثم ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا.

والواقع أن أول من حمل منهم الصليب وتوجه إلى الشرق كان الإمبراطور الألماني على رأس جيش ضخم، إلا أن هذا الإمبراطور عندما عبر بقواته إلى أسيا الصغرى غرق في أحد الأنهار هناك، فتفرق أغلب أفراد هذه الحملة ولم يصل سوى عدد قليل إلى مدينة عكا الساحلية للمشاركة في حصارها وذلك بجانب قوات الملك الفرنسي الذي سارع بالقدوم للمنطقة بعد الكارثة السابقة وفقد الصليبية الثالثة للدعم الألماني. أما الملك الإنجليزي فقبل أن يصل إلى الشرق عرج في الطريق على جزيرة قبرص واستولى عليها، وذلك لموقعها الفريد في مواجهة الساحل الشامي والذي يُمَكن الصليبيين من التزود بالمؤن قبل قدومهم لبلاد الشام.

وهكذا؛ تقابلت القوات الإنجليزية والفرنسية عند أسوار مدينة عكا، وذلك بقصد إسقاطها في القبضة الصليبية لأنها جوهرة الساحل الشامي والتي يمكن من خلالها استرداد بقية المدن الصليبية لاسيما بيت المقدس وهي الغرض الأساسي من الحملة. ودار

الصراع الحربي بين المسلمين والصليبيين بشأن المدينة، وتخلل هذا بعض الاتصالات للتفاوض من أجل عكا، إلا أن هذا لم يمنع حامية المدينة من الاستمرار في مقاومة الصليبيين.

وقد استمر حصار عكا كما استمرت المعارك المتصلة بين الجانبين لمدة عامين كاملين (1189-1191م) إلا أن المدينة سقطت في النهاية في أيدي الصليبيين. وبهذا انتهت معركة عكا لتبدأ أحداث معركة جديدة لا تقل ضراوة عن المعارك الحربية وهي المفاوضات الأيوبية - الصليبية والتي استمرت عامًا كاملاً (1191-1192م).

1- وضع الجانب الصليبي وطلب الدخول في المفاوضات مع المسلمين:

بداية؛ نوضح أنه بعد سقوط عكا في يد الصليبيين أميط اللثام عن فوارق واضحة بين القوي الإسلامي والصليبية ليس فقط من الناحية المادية بل والمعنوية أيضًا، فقد أفقدت المعركة الجانبين الكثير من الأموال والذخائر بالإضافة لخسائر فادحة في الأرواح على أن صلاح الدين ظل محتفظًا بوحدة القيادة في جيوشه وبقوة الروح التي أثارها فيمن تبقي حوله من العساكر المسلمين.

كما ظل قادرًا على تجييش عدد كبير من الجند من مختلف الأقطار الواقعة تحت سلطته المباشرة، أما الصليبيين فقد كان لجهلهم بطبيعة بلاد الشرق الجغرافية اثر عليهم بالإضافة لتعدد جنسيات المحارين الصليبيين وعدم توحيد قيادتهم[1].

والواقع أن الصليبيين قضوا مدة شهر ونصف يرتاحون في عكا من عناء الحرب ويقررون أمرها[2]. بيد أن ذلك لم يكن السبب الوحيد حيث أن المشاجرات كان لها دورًا في تأجيل زحفهم إلى داخل الساحل بعض الوقت. فقد وقع بين الصليبيين سوء تفاهم بسبب عرش مملكة بيت المقدس، ومن هو صاحب الحق من المطالبين به.

---

(1) نظير حسان سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، مكتبة النهضة، ب. ط، القاهرة 1957، ص265.

(2) سعيد احمد برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، ب. د، ب.ط، بيروت 1984، ص426.

وبينما أخذ ريتشارد[1] جانب جي لوزجنان، فإن فيليب أخذ جانب كونراد مونتيفرات[2]. وأخيرًا قرر ريتشارد أن يكون كونراد وريث جي وأنه إذا مات الاثنان ورث هو هذا العرش، وبذلك وجه ريتشارد هذا النزاع لمصلحته وظهرت أطماعه ورغبته في الاستئثار بكل شيء[3].

وتجدر الإشارة هنا؛ إلى أن فيليب بعد حسم النزاع السابق عاد إلى فرنسا نظرًا إلى أن الأحوال في بلاد كانت في حاجة إليه، بالإضافة إلى غضبه من ملك إنجلترا لأن هذا الأخير قد نقض معه اتفاقهم من حيث اقتسام ما يستولون عليه وبهذا بقي ريتشارد منفردًا بزعامة الحملة.

وقد فكر ريتشارد بعد ذلك في خطة لتحقيق هدف الحملة، تتمثل في الزحف بمحاذاة الساحل نحو الجنوب للاستيلاء على المدن الساحلية الواقعة بين عكا وعسقلان ليسهل بعد ذلك الوصول إلى بيت المقدس. غير أن ذلك الطريق الساحلي اعترضته سلسلة من التلال الرملية المنخفضة ذات الغابات الكثيفة والمليئة بالحيوانات الضارة والحشرات والناموس القاتل والأفاعي والثعابين[4].

ويضاف إلى ذلك؛ شدة الحرارة وقلة المؤن وخراب البلاد والقرى، كما أن القوات

---

(1) كان ريتشارد (1157-119م) جنديًا ذو موهبة في وضع الخطط الحربية وعلي دراية بفن المناورات في القتال. وكان ذو شخصية قيادية بالغ الطموح، وبوصفه مقاتلاً كان قريبًا من الجنون وكان يتميز بشجاعة لا تصدق وكان مفعمًا بالجرأة؛ وبوصفه أميرا كان زكيًا ومحترسًا وحذرًا. كان بوسعه أن يجازف بحياته بلا مبالاة تامة. وعنه أنظر: ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، الجزء الثالث، ب. د، الطبعة الثالثة، القاهرة 1993، ص76- 77؛ ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، ب.ط، موسكو 1986، ص210، حاشية (1).

(2) عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطي، مكتبة الجامعة، ب.ط، بيروت 1966، ص181.

(3) المرجع نفسه والصفحة.

(4) نظير سعداوي، المرجع السابق، ص266.

الصليبية كانت أثناء زحفها محصورة بين البحر من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى(1).

حيث عمد الجيش الأيوبي إلى مضايقة الصليبيين في سيرهم، ومهاجمتهم بالسهام(2).

والواقع أن الصليبيين قد اختاروا هذا الطريق الساحلي على الرغم من صعوبته لأنهم كانوا يخشون مفارقة الساحل حتى لا يحول المسلمون بينهم وبين مراكبهم التي تمثل مصدر مؤنهم(3). ولا مراء في أن هذا الوضع قد دفع ريتشارد لفتح باب المفاوضات مع صلاح الدين للتوصل إلى حل سلمي وتجنب القتال(4).

وقد حدث أن طلب الصليبيين من مقدم نوبة كشافة المسلمين بأن يبلغ الملك العادل (540-615هـ/ 1145-1218م) رغبة الملك ريتشارد في الحديث حول الصلح معه، وقد استأذن العادل من السلطان صلاح الدين في الحديث معهم فأذن له(5). وقد

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، الناصر صلاح الدين، الدار المصرية للتأليف، ب.ط، ب.م، ب .ت، ص242 - ص243؛ الحركة الصليبية، الجزء الثاني، مكتبة الأنجلو، الطبعة السادسة، القاهرة1994، ص687- ص688.

(2) يلاحظ أن الصليبيين تعرضوا خلال عملية الزحف بمحاذاة ساحل البحر للهجمات الأيوبية وذلك بقصد إنهاك الجيش الصليبي علي نحو يؤدي لضعف فعالياته الحربية، وإلحاق أكبر قد من الخسائر البشرية والمادية في صفوفه، وعن ذلك أنظر: محمد مؤنس عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات الإنسانية، الطبعة الأولي، الجيزة 1999، ص238- 239.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، الجزء الثالث، ب.د، ب.ط، دمشق، ب.ت، ص867.

(4) كان ريتشارد قد أوضح الأسباب التي جعلته يرمي إلى الصلح في كتابه إلى أسقف كليرفو Clairvaux، حيث أن المناطق الخاضعة لسيادته وشدة حرارتها كانت السبب في المرض وإنفاق الكثير من الأموال واستنفاد القوة والصحة، بالإضافة لإصابة الجنود بالإحباط نتيجة لأن السفن كانت تنقل بين عكا ويافا أشخاص غير مرغوب فيهم. وعن ذلك أنظر: السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، الجزء الأول، دار النهضة العربية، ب.ط، القاهرة 1963، ص970-971.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، القاهرة 1994، ص273.

جرت أحداث الاجتماع التفاوضي بين العادل والصليبيين عند قرية عرفت بدير الراهب[1].

وكان مضمون حديث الصليبيين معه أن القتال قد طال بين الجانبين، وقد قتل من الفريقين العديد من الرجال، وأنهم جاءوا نتيجة استغاثة الصليبيين الموجدين بالساحل فإذا تصالح المسلمين معهم رجعوا - أي الصليبيين الوافدين - من حيث أتوا[2].

وقد بعث صلاح الدين برسالة للعادل ليطيل الحديث مع الصليبيين حتى تصل الإمدادات العسكرية[3]. ويتضح من هذا أن صلاح الدين قبل التفاوض للاستفادة منه في تأخير حركة الصليبيين واكتساب الوقت.

وقد اجتمع العادل والملك ريتشارد بعد ذلك للحديث في أمر الصلح، وقد اخبر العادل ريتشارد بأنه لا يعرف شروطه للصلح، فكان جواب ريتشارد بان الشرط الأساسي الذي يعتبر أساسا للمفاوضات هو أن تعود البلاد كلها للصليبيين[4].

فقال له العادل: "هذا لا مطمع فيه وهذا رسم باطل حقنا معفيه ودون حدود البلاد حدود الحداد"، وكانت تلك كلمات غليظة على مسامع ريتشارد نقلها إليه هنفري بن

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، الجزء الثاني، المطبعة الأميرية، القاهرة 1957، ص367؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، تحقيق حسن محمد الشماع، المجلد الرابع - الجزء الثاني، دار الطباعة الحديثة، ب. ط، بغداد 1969، ص32.

(2) ابن شداد، المصدر السابق، ص273 .

(3) ابن شداد، المصدر السابق، ص273 .

(4) ابن شداد، المصدر السابق، ص274؛ ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجزء الثامن، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الأولي، الهند 1951، ص409.

Steven Runciman, The history of crusades, Vol. 3, Cambridge university press, London 1954, P.55

ومن الملاحظ أن هناك بعض المصادر الصليبية لم تذكر واقعة التقاء ريتشارد بالعادل، وعن ذلك أنظر:

Ambroise, The crusade of Richard Lion Heart, translated by John L. lamonte, Columbia University Press, New York 1941, P. 248-note 16.

الهنفري الذي كان يتولى الترجمة بينهما وبهذا الجواب من العادل انتهي الاجتماع[1].

وعلى اثر ذلك بعث العادل برسول لصلاح الدين ليخبره أن الصليبيين قد تحدثوا معه في أمر الصلح وان مطلبهم الأساسي هو إعادة جميع البلاد الساحلية لهم، وقد وافق صلاح الدين على هذا الطلب لأنه رأي فيه مصلحة لعامة المسلمين، فقد رأي أن العساكر قد أصابهم الضجر من مواصلة القتال والبقاء طويلاً في الميدان، كما أن الديون قد تراكمت عليهم[2]. وبسبب هذه الحالة كتب السلطان للعادل يسمح له بمتابعة المفاوضات "وفوض أمر ذلك إلى رأيه"[3].

ويعني ذلك دون مشورة أحد، فالسلطان أناب عنه الملك العادل في التفاوض. ومن جهة أخري؛ يعد ذلك اعترافا من جانبه على قدرة العادل في تحمل مسئولية التفاوض مع الصليبيين.

وفي الحقيقة؛ إذا كانت أبرز الخصائص الواجب توافرها في السفير - كما سجلها الكُتَّاب المسلمين المعاصرين - أن يكون السفير وسيما مسيمًا، عفيفًا جيد اللسان، وحسن البيان، وحاد البصر، وذكي القلب، ويفهم بالإيماء، ويناظر الملوك على السواء[4]، فإن هذه الصفات تنطبق تماما على شخصية الملك العادل - شقيق صلاح الدين - الذي

---

(1) العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، المطبعة الخيرية، ب.ط، القاهرة 1965، ص542. ويلاحظ هنا أن العماد أورد رد العادل علي ريتشارد، أما ابن شداد فلم يذكر سوي عبارة "فأخشن له الجواب، وجرت منافرة اقتضت أنهم رحلوا بعد انفصالهما". أنظر: ابن شداد، المصدر السابق، ص274.

(2) ابن شداد، المصدر السابق، ص281؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، المجلد السابع، ب. د، ب. ط، بيروت 1994، ص198.

(3) ابن شداد، المصدر السابق، ص281؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، الجزء الثالث، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، القاهرة 1993، ص460.

(4) عمر كمال توفيق، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، ب.د، ب.ط، الإسكندرية 1986، ص120.

أدار دفة المفاوضات بنجاح[1].

والجدير بالذكر؛ أن لقاء دير الراهب في 5 سبتمبر1191م بين الملك العادل وريتشارد قد مثل آخر فرصة ممكنة من أجل التوصل إلى حل سلمي بين الجانبين وتجنب الصدام الحربي بينهم[2]. فعقب يومين فقط من هذا اللقاء خاض الجانبان غمار معركة أرسوف بمبادرة من الجيش الأيوبي بالهجوم على الصليبيين ثم تحول الصليبيين من الدفاع للهجوم المفاجئ العنيف، مما أدي لتفرق وتراجع المسلمين حتى لحقت بهم الهزيمة[3].

على أية حال؛ تجددت المفاوضات ولكن هذه المرة من جانب الصليبيين المحليين حيث بعث المركيز كونراد صاحب صور برسالة لصلاح الدين فحواها انه على استعداد لمحاصرة عكا واستردادها من أيدي إخوانه في الدين بشرط أن يعطيه السلطان صيدا وبيروت[4].

---

(1) كان العادل صاحب رأي قوي، لديه القدرة علي أن يسمع ما يكره، غزير العقل. وعن الملك العادل وصفاته أنظر: ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفي، الجزء الأول – القسم الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة 1982، ص253، ص257؛ القرماني، أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ، مكتبة المتنبي، ب.ط، القاهرة، ب.ت، ص194-195؛ محمد كرد علي، خطط الشام، الجزء الثاني، ب.د، الطبعة الثانية، بيروت 1969، ص80-81؛ سهير محمد مليجي علي، حلب في القرن الثاني عشر الميلادي – السادس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف عليه عبد السميع الجنزوري، كلية البنات- جامعة عين شمس، القاهرة 1996، ص108.

(2) محمد مؤنس عوض، الصراع الإسلامي – الصليبي معركة أرسوف 1191 م – 587 ه، عين للدراسات الإنسانية، الطبعة الأولي، الجيزة 1997، ص15.

(3) ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص67-68؛ ابن الفرات، المصدر السابق، م 4/ج2، ص33-34؛ محمد مؤنس عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ص240-241 .

Martin windrow and francisk.mason, Aconise dictionary of military biography, Camelot press, first published, London 1975, P.239.

(4) ابن شداد، المصدر السابق، ص285؛ العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ص560؛ رانسيمان، المرجع السابق، ص117.

وقد اشترط أن يقسم السلطان له أولاً إذا تم الاتفاق بيد أن السلطان بعث إليه مشترطا أن يبادر هو أولاً بحصار عكا واستردادها وان يطلق سراح الأسرى الموجودين بها والذين في صور أيضًا، ثم بعد ذلك يسلم له المدينتين المشار إليهما(1).

عندما علم ريتشارد بمحاولة المركيز للتفاوض مع السلطان توجه إلى عكا لكي يعوق أي مصالحة تكون بين كونراد والمسلمين، بل وضم كونراد إلى صفوف القوات الصليبية(2).

كما بعث ريتشارد هو الآخر برسول من جانبه ليتحدث في مسألة الصلح، حيث أوضح في رسالته أن البلاد أصبحت خراب، وانه قد عم الطائفتين نقص في الأموال والأرواح، وأن الأمر قد طال وأخذ حقه ووجب الصلح لينتهي هذا العناء، كما أشار بأن الصليبيين لن يتحولوا عن القدس حتى ولو لم يبقى منهم واحد هذا بالإضافة لتمسكهم بعسقلان(3) واستعادة الأردن وما فيها من حصون، وأما الصليب (صليب الصلبوت) "فيمن به السلطان علينا"(4).

وقد أجابه صلاح الدين بأن القدس أعظم عند المسلمين مما هي عند الصليبيين، ولا

Alfried Duggan, The story of the crusade (1097-1291), first published, London 1963, P.190.

(1) ابن شداد، المصدر السابق، ص285؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص372؛ ابن الفرات، المصدر السابق، م 4/ج2، ص39.

Ambroise, op.cit., p.331-note (7).

(2) محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية (1095- 1291)، دار المعرفة الجامعية، ب.ط، الإسكندرية 1995، ص177.

(3) سوف نتحدث لاحقًا خلال هذه الدراسة عن تدمير صلاح الدين لمدينة عسقلان بعد خمسة أيام فقط من معركة أرسوف حتى لا تقع في يد الصليبيين وتشكل خنجرًا مصوبًا لقلب مصر، ثم سيطرة ريتشارد عليها ومحاولته تعميرها.

(4) ابن شداد، المصدر السابق، ص290؛ رانسيمان، المرجع السابق، ص115 .

ويلاحظ هنا أن ريتشارد جمع في رسالته بين الشدة والملاينة لعلمه بوجود مفاوضات صليبية أخري مع صلاح الدين.

يكون هناك أبدا تصور للتخلي أو النزول عنها، أما البلاد التي يريدها الصليبيين فهي في الأصل للمسلمين وكان الاستيلاء عليها طارئا لضعف المسلمين الذين كانوا بها وقت الاستيلاء عليها وأما الصليب فلا يجوز التفريط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام.

ومن الضرورة بمكان ملاحظة أن تمسك كلا من الملك والسلطان ببيت المقدس[1] راجع لان هذه المدينة مقدسة في نظر جميع الأديان، فالمسيحيون يقدسونها لأنها موطن المسيح مبعث هدايته[2]، أما بالنسبة للمسلمين فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، فيها مهبط الإسراء ومبدأ المعراج عند قبة الصخرة[3].

والآن؛ من الممكن أن نقرر أن هذه المرحلة من المفاوضات تدل على مدى تمزق الجانب الصليبي وانشقاقه، فموقف الصليبيين الواردين زعامة ريتشارد من المسلمين يختلف شكلا وموضوعا عن موقف الصليبيين المحليين بزعامة كونراد فالواقع أن طلبات المركيز كونراد كانت بمثابة معاهدة هجوم دفاعي يتحالف فيها مع أعداء الأمس وهم المسلمين ضد الصليبيين إخوانه في الدين. بيد انه قد انشق بموقفه هذا على سائر الصليبيين؛ فهو بمثابة ضربة موجهة ضد الحملة الصليبية الثالثة عامة والملك ريتشارد خاصةً وذلك لأن كونراد يعلم جيدًا مدى تكاليف هذه الحملة التي جاءت من اجل حماية الصليبيين المحليين[4].

---

(1) تقع مدينة بيت المقدس بين البحر الميت من الشرق والبحر المتوسط من الغرب، وتبعد عن الأول 18 ميلاً وعن الثاني 32 ميلاً. وهي مرتفعة نحو 3,800 قدم عن سطح البحر الميت و2,500 قدم عن سطح البحر المتوسط. وعنها أنظر: الاصطخري، مسالك الممالك، دار صادر،ب.ط، بيروت، ب.ت، ص56- 57؛ ابن حوقل، صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، ب.ط، القاهرة 1998، ص158؛ عارف باشا العارف، تاريخ القدس، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة 1994، ص185.

(2) محمد بيومي مهران، المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الثاني، دار المعرفة الجامعية، ب.ط، الإسكندرية 1999، ص240.

(3) قال تعالي: "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى" رقم (17) أية (1).

(4) عمران، المرجع السابق، ص177. الجدير بالذكر؛ أن كونراد مونتيفرات يعد مسئولاً أكثر من غيره عن الحملة الصليبية الثالثة، فقد أرسل مرارًا إلي الغرب يلتمس النجدة، وما كادت الأنباء تصل

ومن جهة أخرى فإن طلباته تعكس طموحاته ومصالحه الشخصية فقط في المنطقة الساحلية.

والجدير بالذكر؛ أن صلاح الدين عمد إلى توازن مائدة التفاوض بين ريتشارد وكونراد أثناء مسيرة المفاوضات وذلك لتحقيق الفائدة للمسلمين وإضعاف مركز ريتشارد عند التفاوض معه[1]. بيد أن تسابق الجانبين في إيفاد الرسل إلى السلطان أشعل نار الحقد في نفس كلا منهما تجاه الآخر[2].

2- فكرة المصاهرة السياسة وظهور مدينة عسقلان على طاولة المفاوضات:

الواقع أن الاتصالات لم تنقطع بين الجانبين فبعد ثلاثة أيام - من المقترحات السابق ذكرها - أرسل ريتشارد في 20 أكتوبر 1191م/ 29 رمضان 587هـ برسول للعادل ومعه عرض بالمصاهرة يتمثل في اقتراح ريتشارد بأن يتزوج العادل من جوانا ملكة صقلية (أخت الملك ريتشارد) وأن يقيما الاثنان بعد الزواج في مدينة بيت المقدس ويكون حكمها ثنائيًا بينهما.

وأن يهب السلطان شقيقه العادل جميع بلاد الساحل بالإضافة إلى ما في يده من بلاد، وان يقدم ريتشارد لشقيقته كل ما فتحه من مدن الساحل بما في ذلك عسقلان، وأن ترد إلى الداوية والإسبتارية كل ممتلكاتهم في بلاد الشام، وان يحصل الصليبيين على صليب الصلبوت، كما يتم تبادل الأسرى بين الجانبين[3].

إلي روما حتى بادرت البابوية بإرسال المنشورات إلي سائر أنحاء أوربا، ولم يلبث أن تم الاستعداد لحملة صليبية جديدة ألا وهي الحملة الصليبية الثالثة. وعن ذلك أنظر: إرنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، الطبعة الرابعة، بيروت 1967، ص86.

(1) عمر كمال، المرجع السابق، ص171-172 .

(2) نظير سعداوي، المرجع السابق، ص280 .

(3) ابن شداد، المصدر السابق، ص292؛ العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ص555؛ ابن سباط، صدق الأخبار، تحقيق عمر عبد السلام، الجزء الأول، جروس بيرس، الطبعة الأولي، طرابلس 1993، ص200؛ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، الجزء الخامس، مؤسسة جمال للنشر،

وقد أرسل العادل بوفد إلى السلطان لعرض الأمر عليه، وقد ترك مجلس المشورة الرأي للسلطان فوافق على المشروع كما وافق العادل أيضًا، إلا أن الرفض جاء من جانب جوانا التي أنكر رجال الدين عليها هذا الزواج، ولهذا عرض ريتشارد على العادل الدخول في الديانة المسيحية، إلا أن العادل رفض ذلك في دبلوماسية وترك باب المفاوضات مفتوحًا[1].

وكانت آخر الرسائل التي بعثها ريتشارد في هذا المشروع تفيد بأن رجال الدين يرفضون هذا الزواج دون مشورة البابا، ولهذا فقد أرسل ريتشارد له رسولاً يعود بعد ثلاثة أشهر فإذا صرح بالأمر تم عقد الزواج وإلا زوج ريتشارد العادل ابنة أخته إليانور دون أن يحتاج إذن البابا في ذلك[2].

وفي الحقيقة؛ أن مشروع الزواج أكثر العروض خيالاً[3]، ومبالغة غير مقبولة في عصر اتسم بالتزمت الديني في هذه الناحية في الشرق والغرب على السواء[4]. وإذا كان هناك مَن يرى أن هذا الزواج كان فكرة طريفة تدل على مدى التقارب والتفاهم بين المسلمين والصليبيين[5]، فهذا النوع من الطرافة يأتي من أن الأمر كله لا يعدو المزاح، فتنفيذ هذا المشروع كان يبدو مستحيلاً وسط حرب دائرة بين المسلمين والصليبيين تحمل

ب.ط، ب.ت، ص327.

(1) ابن شداد، المصدر السابق، ص292- 293.

Runciman, op.cit.,p.59.

(2) ابن شداد، المصدر السابق، ص303-304 .

(3) Malcolm and Jackson,op.cit.,P.342.

(4) إبراهيم سعيد فيهم محمود، يافا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي (1099-1291م/ 492-690هـ)، رسالة ماجستير غير من منشورة، إشراف جوزيف نسيم يوسف، كلية الآداب- جامعة الإسكندرية،1991، ص180.

(5) محمود محمد الحويري، العادل الأيوبي: صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية، دار حراء، ب.ط، القاهرة 1979، ص42 .

طابعًا دينيًا[1].

كما أن هذا التقارب لا وجود له، فقد استغل ريتشارد الصداقة المتبادلة بينه وبين العادل لخدمة أغراضه وإطالة أمد المفاوضات ولعرقلة قيام أي تحالف بين صلاح الدين وكونراد.

ويتضح ذلك من رسائل ريتشارد الخاصة بطلب التنصير من العادل، وانتظار وصول موافقة البابا على هذا الزواج. ومن زاوية أخرى؛ فإن ريتشارد لم يكن جادًا في عرضه - كما يعتقد البعض[2]- ذلك لأنه عرض على العادل الزواج من إليانور إذا رفض البابا زواجه من جوانا.

من جهة أخرى؛ إذا كان الدليل على هذا التقارب بين الفريقين يأتي من موافقة صلاح الدين والعادل على هذا المشروع[3]، فالواقع أن السلطان وافق على هذا الاقتراح اعتقادًا منه بأن ريتشارد لا يوافق على هذا العرض أصلاً، وأن الأمر كله لا يعدو سوى هزو ومكر[4].

أما بالنسبة للعادل فربما رحب بهذا المشروع بغية إقرار السلام[5]، أو أن هذا الحل

---

(1) عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص694؛ صلاح الدين، ص253.

Ernest Barker, The crusades, oxford university press, London 1949,P. 64-65.

(2) Runciman, op.cit.,P.59.

(3) ومن الملاحظ هنا أن ريتشارد كان يراوغ في عرضه فلماذا لم يقدم هذا العرض منذ البداية إذا كان زواج العادل من اليانور لن يتطلب موافقة البابا لذكر ابن شداد ما نصه "أن البابا يحتاجه الصليبيين في تزويج الثيب من بنات الملوك، وأما الابكار فيزوجها أهلها". أنظر: ابن شداد، المصدر السابق، ص304-305.

(4) ابن شداد، المصدر السابق، ص292 .

(5) محمود محمد الحويري، مصر في العصور الوسطي، عين للدراسات الإنسانية، الطبعة الأولى، الجيزة 1996، ص205.

يضمن توحيد الفريقين تحت لواء واحد[1]. بل يذهب البعض لأبعد من هذا في أن العادل هو الذي حاول إغراء ريتشارد كي يزوجه أخته وجعل ذلك من مقومات عقد الصلح[2]. والواقع أن العادل كان دبلوماسيًا بالغ الحنكة فلا ريب انه قد أدرك أن الأمر كله لا يعدو سوى مناورة يقوم بها ريتشارد ولهذا وافق على المشروع[3].

على أية حال؛ فقد تجدد اللقاء بين الجانبين في 8 نوفمبر 1191م/ 18 شوال 587هـ حيث اجتمع العادل مع ريتشارد في موقع اليزك، وقد طلب ريتشارد أثناء هذا الاجتماع من العادل أن يقوم بترتيب اجتماع له مع السلطان، وكان جواب الأخير على هذا الطلب بأنه بعد الصلح يكون الاجتماع[4].

ويتضح من ذلك أن صلاح الدين كان يدرك بثاقب بصره أن ريتشارد لا يبغي الصلح الجاد من وراء هذا الاجتماع وإنما تضييع الوقت. وقد عقد صلاح الدين بعد ذلك مجلس مشورته لترجيح الصلح مع أحد الجانبين ريتشارد أو المركيز، وقد أجمع المجلس على أن يتم الصلح مع ريتشارد لأنه سوف يعود لبلاده، أما الصلح مع الصليبيين المحليين فغير مقبول لأن "مخالتطهم غير مأمونه"[5]. بيد أن صلاح الدين كان يفضل الصلح مع المركيز لأن ذلك يضعف الصليبيين ويزيد من انقسامهم.

وبينما كانت الأمور تجري على هذا النحو دخل فصل الشتاء، وعاد صلاح الدين

---

(1) عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص694 .

(2) حسين الأمين، صلاح الدين الأيوبي بين العباسين والفاطميين والصليبيين، دار الجديد، الطبعة الأولي، بيروت 1995، ص122.

(3) ومما يذكر أن العادل كان يدرك أن أخت الملك ريتشارد لن تقبل الاقتران برجل عربي، ولهذا فلعله وافق علي المشروع علي سبيل "المزاح كعادته". أنظر: ابن العبري، تاريخ الزمان، تحقيق إسحق أرمله، دار المشرق، بيروت1991، ص222.

(4) ابن شداد، المصدر السابق، ص300؛ العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ص560؛ ابن خلكان، المصر السابق، ص199.

(5) ابن شداد، المصدر السابق، ص303.

للقدس، وعاد ريتشارد لعكا[1]. وقد ترددت الرسائل بين الجانبين بعد ذلك إلا أن المراسلة بينهم لم تسفر عن شيء لأن ريتشارد دائما يعدل في مقترحاته، وربما كان السر في ذلك أنه كان ينوي القيام بعمل عسكري على الرغم من سوء الأحوال الجوية فقد أدرك ريتشارد ومن معه من القادة أهمية عسقلان في حسم الصراع الدائر بينهم وبين صلاح الدين لدخول بيت المقدس، ولهذا رأي ريتشارد أنه لابد من السيطرة على عسقلان أولاً لقلة رجاله من ناحية، ولرغبته في تأمين جيشه الزاحف نحو بيت المقدس من ناحية أخري، فكان عليه أن يتجه إلى عسقلان لإعادة تحصينها[2].

والجدير بالذكر؛ أن صلاح الدين اتبع بعد معركة أرسوف سياسة تدمير بعض المواقع الاستراتيجية المهمة الخاضعة لسيادته؛ حتى لا تقع في قبضة الصليبيين على نحو يجعلهم يحققون مكاسب على أرضية الصراع[3]، فقد خشي السلطان الأيوبي أن يتخذ الصليبيون من عسقلان مركزا للانطلاق إلى المدينة المقدسة ومن هنا جاء قراره بتخريبها في 12 سبتمبر 1191م/ 19 شعبان 587هـ[4].

ولم يكن هذا القرار سهلاً على صلاح الدين الذي كان يري أن موت أحد أبنائه أحب إليه من تخريب عسقلان[5]. وعلى الرغم من ذلك قاد السلطان جزءا من جيشه

---

(1) ا بن شداد، المصدر السابق، ص305.

(2) مصطفي عبد العزيز العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف محمد محمد مرسي الشيخ، كلية الآداب- جامعة الإسكندرية، الإسكندرية 1992، ص147.

(3) الواقع أن صلاح الدين اتبع سياسة هدم المدن التي يعجز عن الدفاع عنها وذلك منعا لوقوعها في يد الصليبيين فيشتد بها ساعدهم، ولذلك قام بهدم عسقلان وهدم حصن الرملة واللد. أنظر: الحافظ شمس الدين الذهبي، دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل مزوه، الجزء الثاني، دار صادر، الطبعة الأولي، بيروت1999، ص96؛ الحريري، الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين علي ديار المسلمين، تحقيق سهيل زكار، دار الملاح، ب.ط، دمشق 1981، ص86.

(4) محمد مؤنس، العلاقات بين الشرق والغرب، ص244 .

(5) فقد كان السلطان مهموما بسبب ما استقر عليه الأمر بتخريب المدينة، حتى أنه قال: "والله لأن أفقد

صوب عسقلان وأمر بإخلائها من السكان ودمر المدينة عن آخرها، وقذف بحجارتها في البحر، وارتفعت أصوات أهلها بالبكاء أسفا عليها، وتم إتلاف الغلات التي لا يمكن نقلها أو تحويلها، وباع أهل المدينة أشياءهم بأبخس الأثمان، ورحل البعض منهم إلى مصر والبعض الأخر ذهب للشام[1].

ومع ذلك فقد التمس الصليبيون في خراب عسقلان ملجأ لهم، وذلك بناءً على نصيحة الفرنج الشاميين من الداوية والإسبتارية، الذين بادروا بتوجيه أنظار ريتشارد إلى عسقلان وإعادة عمارتها حتى يسيطر الصليبيين على المؤن التي ترد من مصر إلى بيت المقدس كما يتيسر لهم الاتصال بالأسطول[2]. وقد وصلت قوات ريتشارد المدينة في 20 يناير 1192م/ 3 محرم 588هـ وبدأت في إعادة بنائها على الرغم من المتاعب التي صادفتها من قسوة المناخ وقلة المؤن، فلم يكن الأمر يسيرا نظرا لما لحق بالمدينة من التخريب الشامل على يد صلاح الدين بتدمير أسوارها وأبراجها الضخمة التي لم تقل عن ثلاثة وخمسين برجًا، ولتضاؤل المال الذي يستأجرون به العمال، ونظرًا لهذا تحتم على الفرسان والأجناد والغلمان وسائر رجال الحملة أن يشتركوا في العمل تحت إشراف ريتشارد بل إنه أسهم في ذلك بنفسه[3].

أولادي كلهم أحب إلي من أهدم منها حجرًا واحدًا، ولكن إذا قضي الله بذلك وعينه لحفظ المسلمين طريقًا فكيف أصنع" أنظر: ابن شداد، المصدر السابق، ص280.

(1) ابن شداد، المصدر السابق، ص279-280؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، المجلد الثاني عشر، دار صادر، الطبعة الثالثة، بيروت1982، ص70؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفي زيادة، الجزء الأول- القسم الأول، ب.د، الطبعة الثانية، ب.م، ب.ت، ص133؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد محمد أمين ومحمد حلمي محمد أحمد، الجزء الثامن والعشرون، دار الكتب المصرية، ب.ط، القاهرة 1992، ص434- 435؛ ابن كثير، البداية والنهاية، المجلد السادس، دار الغد العربي، الطبعة الأولي، القاهرة 1991، ص884.

(2) العريني، المرجع السابق، ص983؛

(3) العريني، المرجع السابق، ص984.

والجدير بالإشارة أن صلاح الدين لم يتقاعس في الدفاع عن عسقلان بالرغم من أن المدينة أصبحت

وبينما كان ريتشارد في عسقلان - حيث أمضي فيها أربعة أشهر - وصلت أنباء عن تطلع شقيقه حنا للاستيلاء على عرش إنجلترا فبدت الأمور ملحه لعودة ريتشارد إلى بلاده، فأضطر لعقد مؤتمر في عسقلان خلال شهر إبريل سنة 1192م/ 588هـ وأعرب للمجتمعين فيه من الفرسان والبارونات عن رغبته في العودة إلى بلاده ولكنه حريص على حل مشكلة عرش مملكة بيت المقدس قبل عودته، وترك لهم حرية الاختيار ما بين جي وكونراد فوقع رأي الأغلبية على كونراد لاعتلاء عرش مملكة بيت المقدس، وعلى الفور توجه هنري كونت شامبانيا إلى صور ليهنئ كونراد الذي قاطع هذا المؤتمر وظل بمدينة صور، وفي نفس الوقت توجه جي لوزجنان إلى قبرص لينصب بها ملكًا[1].

ولم يهنأ كونراد بوضعه الجديد فسرعان ما اغتيل بصور على يد اثنين من الباطنية (الحشاشين) في الثامن والعشرين من أبريل 1192م[2]. وفي الحقيقة هناك اختلاف بين المصادر الإسلامية والصليبية في حقيقة المحرض على قتل كونراد ولهذا فمن الضروري عرض الاتهامات الواردة في هذا الشأن وتحليلها على النحو الآتي:

خربة خالية فقد أرسل بعض فرقه لمناوشة الصليبيين، بينما سمح لقواته الرئيسية بأخذ قسط من الراحة حتى تتحسن الظروف الجوية فيتمكن من التصدي للصليبيين الذين لابد وأنهم يستعدون للهجوم علي بيت المقدس وهي الهدف الرئيسي للحملة كلها. وعن ذلك أنظر: مصطفي العسقلاني، الرسالة السابقة، ص143.

Runciman, op.cit., P.62.

(1) جرجس فام ميخائيل، الأحوال السياسية لمملكة بيت المقدس الصليبية وعلاقاتها الخارجية (1191-1291م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف فايز نجيب إسكندر، كلية الآداب- جامعة الزقازيق، الزقازيق1989، ص114- 115.

Runciman,op.cit.,P.63

(2) Ambroise, op.cit., P.338-not (12); Runciman, op.cit., P46; J.O.Thorne, Chambers's Biographical Dictionary, new edition, London 1961, P.307; Regine Pernound, The crusades, London 1962, P.198.

أولاً- اتهم المؤرخ ابن الأثير صلاح الدين صراحة بقتل كونراد[1]. والواقع أن صلاح الدين لم يكن أبدا رجل الغدر والخيانة فسيرته الذاتية وعلاقته مع أعدائه تثبت ذلك، ويكفي أنه على مدي تاريخه لم يغدر بأي عدو له على الإطلاق. ومن جهة أخرىلماذا يقدم صلاح الدين على قتل كونراد وهو على علم تام بالانقسامات بين الصليبيين[2].

كما أن وجود كونراد على مائدة التفاوض مع صلاح الدين كان له أهمية كبري لجعل مركز ريتشارد حرجا عند التفاوض مع المسلمين، ولهذا كان من المنطقي أن ترد إشارات في المصادر الإسلامية توضح أن السلطان لم يسر لمصرع كونراد لما سوف يترتب على ذلك من توحيد كلمة الصليبيين وهذا ما ليس في مصلحة صلاح الدين والمسلمين[3].

زد على ذلك؛ أن المصادر الصليبية لم ترد فيها أدني إشارة لاتهام صلاح الدين بهذا الأمر. والواضح أن الاتهام لا يخرج عن دائرة الكراهية الشخصية التي يكنها ابن الأثير لصلاح الدين والتي تظهر أكثر من مرة في كتاباته[4].

ثانيًا- تشير المصادر الصليبية إلى اتهام الحشاشين أنفسهم باغتيال كونراد، وذلك

---

(1) فيذكر أن صلاح الدين دفع عشرة آلاف دينار إلي شيخ الجبل سنان في مقابل أن يقتل كل من ريتشارد والمركيز، فقتل سنان الأخير وترك الأول لأن بقتله سيتفرغ صلاح الدين للحشاشين، وهذا ليس من المصلحة في شيء. أنظر: ابن الأثير، المصدر السابق، م 12، ص78-79.

(2) Duggan, op.cit., P.19

(3) ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، 382؛ ابن الفرات، المصدر السابق، م4/ج2، ص64.

(4) عاشور، صلاح الدين، ص255.

الواقع أن المؤرخ ابن الأثير نشأ في ظل حكم الزنكيين، ولذلك فإنه في أهم مؤلفاته وهي"الكامل في التاريخ" وكتابه "الباهر في الدولة الأتابكية" نجده يحابي أمرائه الزنكيين ولا يلتزم جانب الحياد أو التفصيل حين يتكلم عن علاقة الزنكيين بصلاح الدين أو حين يتكلم عن صلاح الدين نفسه. أنظر: شاكر مصطفي، التاريخ العربي والمؤرخون، الجزء الثاني، الطبعة الأولي، دار العلم، بيروت1979، ص114.

بناءً على حادثة فحواها أن كونراد كان قد استولي على سفينة تجارية تابعة للحشاشين عندما دخلت مدينة صور، فاستولي على ما في السفينة من سلع وغرق بحارة السفينة، وقد رفض كونراد أي محاولة إرضاء أو تعويض عرضها سنان شيخ الجبل[1] عليه، وكرد على هذه الإهانة أرسل سنان رجلين ليثأر لنفسه من المركيز[2].

ثالثًا- اتهم الرأي العام ريتشارد بقتل كونراد[3]، وفي نفس الوقت تؤكد المصادر الإسلامية على ذلك، حيث ذكرت أنه عندما تم القبض على الرجلين منفذي الاغتيال[4] اعترفًا بأن ريتشارد هو الذي دفعهم لهذا الأمر[5]. ولكي يبرأ الإنجليز ملكهم كتبوا في حولياتهم رسالة مزورة بعث بها شيخ الجبل إلى ليوبولد الخامس دوق استريا[6] يعلن فيها

---

(1) هو أبا الحسن سنان سليمان بن محمد، ولد بجوار البصرة في قرية عقر السدن علي قول ياقوت الحموي، وكان قوي الشخصية حاد الذكاء، وكان أول من لقب بشيخ الجبل، وهو أكبر زعماء الحشاشين في الديار الشامية. وعنه أنظر: زكي النقاش، الحشاشون وأثرهم في السياسة والاجتماع، رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف حسن إبراهيم حسن، كلية الآداب-جامعة القاهرة، الجيزة 1953، ص174.

(2) Ambroise, op.cit., P.338-note (12); Runciman, op.cit., P.65; Robert Lee Wolef and Harry W. Hazard, The Later Crusades (1189-1311), Vol.2, University of Pennsylvania press, London 1962, P.80- 81.

(3) اتش.إ.ماير، الحملات الصليبية، الجزء الأول، ترجمة محمد فتحي الشاعر، دار الأمين، الطبعة الأولي، القاهرة 1999، ص202.

(4) هناك مَنْ يرى أن أحد الرجلين قُتل علي الفور، بينما تم القبض علي الآخر وسجن، وقبل إعدامه اعترف أنه هو ورفيقه من الحشاشين، وأن الذي كلفهما بهذا الأمر هو سنان شيخ الجبل. أنظر:
Runciman, op.cit., P.65; Duggan, op.cit., P.193.

(5) ابن شداد، المصدر السابق، ص310؛ العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ص589.

(6) ليوبولد (دوق النمسا) هو الرجل الذي قذف ريتشارد في عكا بعلمه علي الأرض، ولم ينسي ليوبولد الإهانة، وأثناء عودة ريتشارد إلي بلاده بعد انتهاء الحملة الصليبية الثالثة مجتازًا أراضي الدوق، قبض عليه الأخير واتهمه بقتل كونراد وألقي به في السجن لمدة سنتين. أنظر: زابوروف، المرجع السابق، ص211؛ سعيد برجاوي، المرجع السابق، ص438؛ رانسيمان، المرجع السابق،

الشيخ صراحة أنه قد أمر بقتل كونراد[1].

وبالإضافة إلى هذا؛ تستبعد المصادر الصليبية مسئولية ريتشارد عن هذا الحادث[2] لأنه رجل قضي حياته في الحرب وهو فارس شريف[3] ولم يكن ليقدم على استخدام سلاح الاغتيال[4]. وفي الحقيقة؛ أن دوافع قتل كونراد قد تكون لدي ريتشارد أكثر من أي شخص أخر، فليس من المستبعد أن يكون ريتشارد هو صاحب الدسيسة وذلك لتوفر العديد من الدوافع لديه؛ فالمركيز في نظر الصليبيين خائن وخارج على الدين وموالِيًا للأعداء، كما أنه يمثل حجرة عثرة في طريق ريتشارد الدبلوماسي مع المسلمين، وبمعني أخر فإن مفاوضات كونراد مع صلاح الدين كانت تؤدي لعرقلة مفاوضات ريتشارد مع السلطان وإضعاف مركزه التفاوضي.

والراجح أن ريتشارد قد دفع بالأموال لشيخ الجبل لكي يغتال المركيز، وقد وجد سنان في هذا فرصة سانحة لكسب المال والثأر في أن واحد[5].

وعلى أية حال؛ عندما علم هنري كونت شامبانيا – ابن أخت ريتشارد – بمصرع كونراد طار من عكا إلى صور حيث استقبله سكان المدينة بالهتاف ليرث العرش ويتزوج

ص142.

James Westafall Thompson, The Middle Ages (300-1500), Vol.1, Pilmpton press, London 1931, P.586; Rily-Smith, The Crusade (1095-1279), first published, London 1981, P.21.

(1) رانسيمان، المرجع السابق، ص143، حاشية (1).

Hans Eberhard Mayer, The Crusades, Oxford university press, London 1972, P.146.

(2) Ambroise, op.cit., P.338-note (12).

(3) Duggan, op.cit., P.193.

(4) Runciman, op.cit., P.65.

(5) ومن الملاحظ أن مصرع كونراد أثلج صدر ريتشارد، حيث يذكر العماد أن ريتشارد كان يسابق المركيز في إيفاد الرسل إلا أنه لما قتل المركيز "سكن روعه وورعه. وطاب قلبه وآب لبه. واستوي أمره وإستشري شره". أنظر: العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ص589.

الأميرة إيزابيلا زوجة المركيز المقتول[1]. وقد وجه الكونت هنري رسالة مليئة بالادعاء والغرور إلى صلاح الدين فحواها أنه يريد أن ترد له مملكة بيت المقدس لأنه أصبح ولي عهدها، وعلى أثر هذه اللهجة من الكونت هنري بعث ريتشارد برسالة لصلاح الدين يخبره فيها أنه جعل هنري وقواته في خدمة السلطان فليعامل هنري إذن معاملة حسنة، فأرسل السلطان له بأن الكونت هنري سيكون لديه "كبعض أولاده"[2].

وكان ريتشارد قد طلب في رسالته السابقة أن يعطيه السلطان كنيسة القيامة[3]، وقد ر أي مجلس المشورة ضرورة عقد الصلح لأن المسلمين أصابهم الضجر والتعب وكثرة الديون[4]، فما كان من السلطان إلا أن أرسل لقلب الأسد بأنه يكون للصليبيين كنيسة القيامة والبلاد الساحلية التي فتحوها، ويكون للمسلمين القلاع الجبلية، إلا عسقلان وما ورائها فتكون خرابًا ليست لأحد من الجانبين[5].

فتعثرت المفاوضات بين الجانبين نظرا لتمسك ريتشارد بعسقلان لأنه صرف في إعادة تحصينها أموالاً طائلة، ولهذا عرض صلاح الدين عليه أن يعوض الصليبيون في

---

(1) رانسيمان، المرجع السابق، ص126.

(2) ابن شداد، المصدر السابق، ص324-326؛ رانسيمان، المرجع السابق، ص133.

(3) توجد كنيسة القيامة في بيت المقدس وقد بنتها القديسة هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين في عام325م. انظر: محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، عين للدراسات الإنسانية، الطبعة الأولي، الجيزة 1995، ص62، حاشية (50).

(4) الواقع أن؛ نقص الأموال كان ناتجا عن أن صلاح الدين أنفق مال مصر في فتح الشام، ومال الشام في فتح الجزيرة ومال الجميع في فتح الساحل.ثم وجد نفسه في النهاية بلا موارد تكفي للحصول علي الأسلحة والمؤن وعطاء الأجناد، ولذلك ما استطاع أن يفعل شيئا لتخفيف الضائقة التي حلت بالعساكر. أنظر:
هاملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس وآخرون، دار العلم للملايين، ب.ط، بيروت 1964، ص138.

(5) ابن شداد، المصدر السابق، ص326؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص391 .

المقابل بالمزارع والقرى القريبة من عسقلان، على أن تخرب الداروم وغيرها[1].

إلا أن ريتشارد حرص على أن تترك هذه الأماكن الثلاثة؛ عسقلان ويافا والداروم عامرة، وأعلن تخليه عن القدس نهائيا، على أن يكون للصليبيين من الداروم إلى أنطاكية[2]. وقد رفض السلطان هذه الشروط وأصر على خراب عسقلان وتعويض الصليبيين في المقابل باللد، فرفض ريتشارد هذا العرض وبعث برسول للسلطان ليخبره بأنه "لا يمكننا أن نخرب من عسقلان حجرًا واحدًا ولا يسمع عنا في البلاد مثل ذلك"[3]، وبهذا وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود.

3- الدبلوماسية الأيوبية الصليبية:

كان توقف المفاوضات دافع لصلاح الدين للقيام بعمل عسكري من شأنه إجبار ريتشارد على قبول المقترحات السابقة إذ ما عاد لمائدة التفاوض من جديد. فقد انتهز صلاح الدين فرصة غياب ريتشارد عن يافا وقام بالاستيلاء عليها، إلا أن ريتشارد عاد للمدينة فور علمه بالأمر وألحق الهزيمة بالقوات الإسلامية التي لاذت بالفرار، وعادت يافا إلى الصليبيين مرة أخري[4].

وعقب معركة يافا ازدادت رغبة ريتشارد في العودة إلى بلاده نظرا لسوء الأحوال فيها ولهذا أرسل إلى السلطان لطلب الصلح، إلا أن الاتصالات لم تسفر هذه المرة أيضًا عن شيء لتشدد الجانبين في أمر مدينة عسقلان. وقد مرض ريتشارد بعد ذلك في يافا وظل بها فترة فأرسل له السلطان بطبيبه الخاص ومعه الفاكهة والثلج[5].

وعندما اشتد بريتشارد المرض أرسل إلى العادل ليتوسط له عند السلطان في الصلح، على أن يعطيه السلطان عسقلان فإن رفض قبل ريتشارد التعويض عن ما أنفقه

---

(1) ابن شداد، المصدر السابق، ص327؛ مصطفي العسقلاني، الرسالة السابقة، ص158.

(2) ابن شداد، المصدر السابق، ص328؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص392 .

(3) ابن شداد، المصدر السابق، ص328؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص393 .

(4) ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص393-398؛ رانسيمان، المرجع السابق، ص133-135.

(5) جرجس ميخائيل، الرسالة السابقة، ص118؛ محمد مؤنس، العلاقات بين الشرق والغرب، ص251.

في تعميرها، فعقد السلطان مجلسه للتشاور في الأمر حيث أجمع الأمراء على ضرورة عقد الصلح لما لحق بالبلاد من التدمير والتخريب من ناحية، ولأن الجنود تراكمت عليهم الديون وأصابهم الضجر من مواصلة القتال والبقاء طويلا في الميدان من ناحية أخري[1].

وبينما كانت الأمور تجري على هذا النحو أعلن ريتشارد نزوله عن عسقلان وعن طلب التعويض الذي اقترحه، وبذلك اتضح انه يبغي الصلح الجاد هذه المرة. فنشطت المراسلات بين الطرفين للاتفاق على قواعد الصلح حتى تم الاتفاق على هدنة الرملة في 1 سبتمبر 1192م/ 21 شعبان 588هـ[2].

وقد رفض ريتشارد أن يقسم على الهدنة متعللا بأن الملوك لا يقدمون على مثل ذلك الأمر، ولهذا أقسم بالنيابة عنه الكونت هنري، وباليان بن بارزان، ومقدما الإسبتارية والداوية[3].

وقد أعطي السلطان يده فقط مثلما فعل ريتشارد ولم يقسم وأقسم بالنيابة عنه الملك العادل، والملك الأفضل، والملك الظاهر - أبناء السلطان -، والملك المنصور -

---

(1) ابن شداد، المصدر السابق، ص343؛ العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ص603-604؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ص86؛ مؤرخ الجستا المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة وتحقيق حسن حبشي، الجزء الثاني، الهيئة العامة للكتاب، ب.ط، القاهرة 2000، ص264.

(2) العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ص605؛ الدوداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، الجزء السابع، ب.د، ب.ط، القاهرة 1972، ص111؛ الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الجزء الثالث، دار الكتب العلمية،ب.ط، بيروت، ب.ت، ص292؛ الحافظ شمس الدين الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الجزء الرابع، ب.ط، الكويت1963 ص265؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ب.د، الطبعة الأولي، ب.م، ب.ت، ص233.

Edward Maslin Hulme, The Middle Ages, revised edition, New York 1938, P.490; Z.N.Brooke, A History of Europe (911-1198), first published, London 1938,P.495.

(3) ابن شداد، المصدر السابق، ص347؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، الجزء الثاني، ب.د، الطبعة الثانية، النجف 1969، ص150.

صاحب حماة -، والملك المجاهد - صاحب حمص -، والملك الأمجد بهرام شاه - صاحب بعلبك -، والأمير بدر الدين - صاحب تل باشر -، والأمير سابق الدين عثمان - صاحب شيرز -، والأمير سيف الدين المشطوب وغيرهم من المقدمين الكبار[1]. وكانت الهدنة تنص على الأتي[2]:

أولاً: هدنة عامة في البر والبحر والسهل والوعر مدتها ثلاثة سنوات وثمانية أشهر.

ثانيًا: يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من يافا جنوبًا حتى عكا شمالاً (يافا، أرسوف، قيسارية، حيفا، عكا).

ثالثًا: تخريب عسقلان.

رابعًا: تكون اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين.

خامسًا: يكون للصليبيين حرية الحج إلى بيت المقدس.

هذا وقد اشترط الصليبيين دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في الهدنة فوافق السلطان على أن يقسموا فإن لم يفعلوا ذلك لا يدخلوا فيها[3]. وقد أمر صلاح الدين أن يذاع خبر الهدنة في معسكرات الجنود وفي الأسواق ليتنقل المسلمين والصليبيين في البلاد بحرية وسلام[4].

---

(1) ابن الفرات، المصدر السابق، م4/ج2، ص84؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، الجزء الثالث، مكتبة المتنبي، ب.ط، القاهرة، ب.ت،ص 82.

(2) العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ص605؛ ابن واصل، المصدر السابق، ص403؛ ابن سباط، المصدر السابق، ج 1، ص204؛ ابن الفرات، المصدر السابق، م4/ج2، ص84؛ مؤرخ الجستا المجهول، المصدر السابق، ج 2، ص264-265.

رانسيمان، المرجع السابق، ص139 - 140.

Harold Lamb, The Crusades The Flame of Islam, New York P.193; Sidney Painter, A History of The Middle Ages (284-1500), second printing, New York 1945, P. 216

(3) ابن شداد، المصدر السابق، ص347؛ النويري، المصدر السابق، ج 28،ص 436.

(4) أبو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق أحمد البيومي، القسم الثاني، مكتبة الأسد، ب.ط، دمشق 1992، ص272.

ويمكننا الآن أن ندرك بعض الأمور المهمة نعرضها على النحو الآتي:

أولاً- كان ريتشارد حريصًا على طلب الصلح نظرًا لما أصاب جنوده من الضجر لطول غيابهم عن أوطانهم، بالإضافة لسوء الأحوال في بلاده ومحاولات أخيه حنا إقصائه عن العرش ورغبته في العودة بأسرع صورة ممكنة، وأخيرًا اشتد به المرض ويأس من الشفاء. وعلى هذا كانت شروط الصلح جيدة بالنسبة له بأي حال من الأحوال[1].

ثانيًا- لم يكن الصلح من إيثار السلطان صلاح الدين لأنه كان يفضل الجهاد، كما انه كان يخشى من أن يقوي العدو وله بلاد في يده فيخرج لاستعادة بقية البلاد[2]. بيد أنه أدرك أن المصلحة في عقد الهدنة لأن الحرب قد طالت وألحقت بالمسلمين خسائر عديدة.

ثالثًا- أن هذه أول مرة تنتهي حملة صليبية إلى صلح أو اتفاق يجمعها على التعايش وقبول الواقع[3]. والواقع أن ما حدث ليس صلحا وليس معاهدة سلام دائمة وإنما في الحقيقة هدنة مؤقتة قصيرة الأجل.

رابعًا- تختلف روايات المصادر الإسلامية والصليبية في تحديد مدة سريان المعاهدة وبدايتها، والواقع أن هذا الأمر مردود عليه بأن العماد الأصفهاني هو الذي كتب نسخة المعاهدة مما يدفعنا إلى ترجيح روايته[4].

---

(1) فلم يكن ريتشارد يطمع في أحسن من هذه الشروط "وأما من يري غير ذلك ويرفض الاتفاق السلمي فكذاب أشر" أنظر: مؤرخ الجستا المجهول، المصدر السابق، 265.

(2) أبو شامة، المصدر السابق، ج 2، ص273؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج2، 405 .

(3) عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص184 .

(4) يذكر جيوفري دي فينسوف،وأمبروز، وروجر أوف أن مدتها ثلاث سنوات تبد أمن عيد القيامة لسنة 1193م /589ه. أنظر: إبراهيم سعيد، الرسالة السابقة، ص203. وهناك مَن يذكر أن مدة الصلح خمس سنوات. أنظر: رانسيمان، المرجع السابق، ص139. أما العماد فيذكر ما نصه: "فحضرت لإنشاء عقد الهدنة وكنت نسختها، وعنيت مدتها وبنيت قضيتها وذلك يوم الثلاثاء

خامسًا- أن المدة الزمنية للمعاهدة تفيد في إعادة تعمير البلاد وتحسين الزراعة التي أتلفتها الحرب، فضلاً عن أن هذه المدة من شأنها أن توفر الراحة للجيش الأيوبي الذي لم يهدأ طوال سنوات عديدة (من 1187 حتى 1192) فقد قضي هذا الجيش كل هذه المدة تقريبا في قتال، فقد خرج من معركة حطين ليدخل في معارك فتح الساحل ثم حصار بيت المقدس، ثم معركة عكا - عامين كاملين - ثم معركة أرسوف. أما بالنسبة للصليبيين؛ فقد حسبوا أن وقت انتهاء المعاهدة يوافق "وصولهم من البحر"[1] حتى يقوموا بالعدوان على المنطقة على من جديد.

سادسًا- لم يتم في هذه الهدنة أية اعتراف للصليبيين بأي حق لهم على أرض فلسطين وإنما تقرر عدم القتال على ما انتزعوه من أرض إلى أن تنتهي الهدنة.

سابعًا- من الراجح أن التجار الإيطاليين كان لهم دور في إقناع ريتشارد بالتخلي عن المدينة المقدسة نظير استيلائه على المدن الساحلية[2]. وفي الواقع لقد خرج الصليبيين بمكاسب من هذا البند الخاص بالمنطقة الساحلية لأن بها جوهرة الساحل الشامي عكا، كما أن يافا كان من شأنها تسهيل وصول الحجاج الأوربيين المسيحيين إلى المناطق المقدسة لديهم.

ومن المنطقي تصور دور التجار الإيطاليين إذ أن المستعمرات الصليبية في بلاد الشام كانت في أمس الحاجة لمساعدات المدن الإيطالية، ليس في المجال العسكري فحسب، لكن بصورة أكبر في نقل الإمدادات والمؤن والطعام، وبشكل مكثف الحجاج والفرسان والمحاربين[3].

الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لأول أيلول لمدة ثلاث سنوات وثمانية شهور". أنظر: العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ص605.

(1) العماد الأصفهاني، المصدر السابق، ص605؛ نعمان الطيب سليمان، منهج صلاح الدين الأيوبي في الحكم والقيادة، مطبعة الحسين، الطبعة الأولي، القاهرة 1991، ص322.

(2) نعمان الطيب، المرجع السابق، ص322.

(3) حاتم عبد الرحمن الطحاوي، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، عين للدراسات الإنسانية، الطبعة

ثامنًا- أن البند الخاص بجعل اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين يعد من الإشارات الأولي في المصادر العربية عن نظام بلاد المناصفات، وهي المناطق التي توصف بأنها مناطق محايدة[1].

تاسعًا- يحمل البند الخاص بالحج رسالة حضارية على جانب كبير من الأهمية، فقد أراد السلطان أن يوضح للصليبيين أنه لا توجد أية مشكلات من شأن تدفق حركة الحج المسيحي مع وجود المقدسات المسيحية في أيدي المسلمين[2]. ومما يذكر في هذا الشأن أن ريتشارد طلب من السلطان ألا يسمح للصليبيين بالحج إلا بإذن منه - أي من ريتشارد شخصيا - ولكن صلاح الدين رفض هذا الطلب حتى لا يجعل له بمقتضي هذا الحق أي سيطرة على بيت المقدس ولو معنوية، ومن ناحية أخرى خوفا من غضب الحجاج المسيحيين وهم من أمم مختلفة، حتى لا يعودوا ويثيروا أممهم ضد السلطان من جديد[3].

عاشرًا- كان من الطبيعي أن يقابل الجانبين الإسلامي والصليبي الهدنة بالارتياح بعد أن مل كلا منهما طول القتال[4]، ولهذا ترددت في المصادر العبارات التي

الأولي، الجيزة 1999، ص116.

الواقع أن أية حرب مع المسلمين كانت تؤدي إلي كساد تجارة الجمهوريات الإيطالية. كما يلاحظ أن البنادقة قد تمتعوا بالإقامة في المدن الساحلية التي نصت عليها الهدنة بعد أن انتهت الحملة وعملوا علي حماية هذه المنطقة الساحلية من الأخطار. أنظر: عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فليب صابر سيف، دار الثقافة، الطبعة الأولي، القاهرة 1972، ص147؛ عفاف سيد صبره، العلاقات بين الشرق والغرب وعلاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من 1100-1400م، دار النهضة العربية، ب.ط، القاهرة 1983، ص37.

(1) محمد مؤنس، العلاقات بين الشرق والغرب، ص248.

(2) نفسه، نفس المرجع، ص249 .

(3) عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص184.

(4) عمران، المرجع السابق، ص184.

فقد أقيمت المآدب والألعاب احتفالاً بالصلح، ويقول صاحب سيرة ريتشارد في هذا: "والله وحده يعلم

توصف الفرح والسرور الذي عم الجانبان في يوم الهدنة.

على أية حال؛ لقد انتهت بهذه الهدنة الحملة الصليبية الثالثة بعد أن باءت بالفشل في تحقيق الهدف الأساسي الذي جاءت من أجله وهو الاستيلاء على بيت المقدس[1].

ويذكر البعض أن ريتشارد كافئ الملك العادل على مجهوداته في إجراء هذا الصلح بأن منح أبنه الكامل رتبة الفروسية في احتفال رسمي[2]. والواقع أن هذا الأمر لم يحدث في ذلك الوقت ولهذا السبب، لكن أحداثه جرت في مارس 1192م حيث دعا ريتشارد العادل لحضور حفل يوم أحد السعف – الخاص بالمسيحيين – وذلك نتيجة لما نشأ بين الاثنان من مودة وتقارب وصداقة متبادلة، وفي هذا الاحتفال الديني ألبس الملك ريتشارد الكامل أبن العادل لباس الفروسية بحضور كبار رجال الجيش الصليبي[3].

مقدار السرور الذي ملأ قلوب الشعبين وهو سرور يجل عن الوصف". أنظر: ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، الجزء الرابع من المجلد الرابع، دار الجيل، ب.ط، بيروت، ب. ت، ص44.

(1) سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، ترجمة رياض رأفت، دار الأفاق العربية، الطبعة الأولي، القاهرة 2001، ص319؛ فريال محمود عباس قطان، الحجاز في ظل الدولة الأيوبية، رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف السيد عبد العزيز سالم، كلية الآداب– جامعة الإسكندرية، الإسكندرية 1990، ص154.

Barker, op.cit., P.66; Caril Stephenson, Mediaeval History, Harper publishers, revised edition, New York 1953,P.435.

(2) نعمان الطيب، المرجع السابق، ص323.

(3) نظير سعداوي، المرجع السابق، ص285؛ فيلب حتى، صانعوا التاريخ العربي، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، الطبعة الثانية، بيروت1908، ص193.

Runciman, op.cit., P.63.

هناك من يذكر هذه الواقعة بصورة أخري، فحواها أن ريتشارد ألبس حزام الفروسية في هذا الاحتفال للملك العادل. أنظر:

Matthew Strickland, War and Chivalry, Cambridge University press,

ويقال أن ريتشارد حينما ركب سفينته عائدا إلى بلاد أرسل رسالته الأخيرة إلى صلاح الدين يتحداه ويتوعده بقوله: أنه سيعود بعد ثلاث سنين ويستولي على بيت المقدس، فكان رد صلاح الدين عليه رد القوي الهادي الرصين الواثق من نفسه إذ قال له مستهزئا به: "أنه إذا كان لابد أن تقطع يده فإنه يفضل أن يقطعها ريتشارد لا أي رجل سواه"[1]. والواقع أن هذه الرسالة لا توجد لها أدني إشارة في المصادر الإسلامية.

والآن؛ من الجدير أن نتعرف عن قرب على مدينة عسقلان التي كانت سببًا في تعثر المفاوضات أكثر من مرة، ثم استقر الأمر في النهاية على تخريبها طبقًا لهدنة الرملة.

تقع مدينة عسقلان في المدخل الجنوبي لبلاد الشام عند خط عرض 31 شمالا[2]، وتأتي في الترتيب على الساحل بعد مدينة أرسوف ويافا[3]. ويلاحظ أن هذا الموقع كان السبب في الشهرة التي اكتسبتها عسقلان منذ العصور القديمة لأنها تقع بذلك على الطريق التجاري بين مصر والشام.

---

first edition, London 1996, P.26-27.

(1) نعمان الطيب، المرجع السابق، ص327؛ ول ديورانت، المرجع السابق، ج4، ص44.

هناك مَن أورد جواب صلاح الدين بأنه إذا كان سيفتقد بيت المقدس، فإنه يؤثر أن يكون خصمه رجلاً كريتشارد. أنظر: فيلب حتى، المرجع السابق، ص194. وهناك مَن ذكر أن جواب صلاح الدين كان: "في الحقيقة لو أن مشيئة الله بأن تذهب القدس لأيدي غير أيدينا، فإنها لن تكون في يد أنبل من يد الملك ريتشارد". أنظر:

Meron Benvenisti, City of Stone the Hidden History of Jerusalem, University of California press, London 1996, P.15.

(2) مصطفي العسقلاني، الرسالة السابقة، ص33؛ اليعقوبي، البلدان، المطبعة الحيدارية، الطبعة الثالثة، النجف1957، ص85؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، دار صادر، ب.ط، بيروت، ب.ت، ص239؛ ابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس 1893، ص152.

(3) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، الطبعة الثانية، ليدن 1909، ص192.

وتبلغ مساحة عسقلان 610 فدان[1]. وهي تتخذ شكل نصف دائرة يمتد قطرها على طول الشاطئ بينما يقع قوس هذه الدائرة على المنطقة المطلة نحو الشرق، وتستقر المدينة بأسرها في حوض يميل نحو البحر[2].

ويغلب على هذه المدينة التربة الرملية، وتكثر بها أشجار الزيتون واللوز والكروم وأشجار الفواكه، فقد كانت تجمع بين الجمال وأصالة المكان واعتدال المناخ ولعل هذا السبب في أنها عرفت بعروس الشام.[3]

وقد قيل أن الرسول (ﷺ) تحدث عن مدينة عسقلان ومدحها بأقوال عديدة(4).

---

(1) مصطفي العسقلاني، الرسالة السابقة، ص33.

(2) وليم الصوري، تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، تحقيق سهيل زكار، الجزء الثاني، دار الفكر، الطبعة الأولي، دمشق 1990، ص809.

(3) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، بيروت 1984، ص95؛ ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، الجزء الأول، دار إحياء العلوم، الطبعة الثانية، بيروت1992، ص78؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، ب.ط، القاهرة1994، ص357؛ الهروي، الإشارات إلي معرفة الزيارات، تحقيق جاتين سورديل، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ب.ط، دمشق1953، ص32؛ البغدادي، مراصد الإطلاع علي أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البيجاوي، المجلد الثاني، دار الجيل، الطبعة الأولي، بيروت1992، ص940؛ ابن النابلسي، الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، تحقيق رياض عبد الحميد، دار المعرفة، الطبعة الأولي، دمشق1989، ص428؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، المجلد الرابع، دار صادر الطبعة الثانية، بيروت1995، ص122.

(4) فيذكر أن الرسول (ص) قال: "إذا دارت الرحا في أمتي كان أهل عسقلان في عافية"، "أفضل الرباط عسقلان"، وعن الأحاديث الواردة في فضل عسقلان أنظر:

الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، الجزء الثاني، المطبعة الحيدارية، ب.ط، النجف1968،73؛ ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، ب.ط، دمشق 1988، 102؛ القز ويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، ب.ط، بيروت، ب.ت، ص222. ويذكر أن عمر بن الخطاب قال: "لولا أن تعطل الثغور وتضيق عسقلان بأهلها لأخبرتكم

ويبدو أن هذه الأحاديث كان لها الأثر القوي في نفس صلاح الدين حين فضل موت أحد أبنائه عن تخريب حجر واحد منها. وتوضح روايات المؤرخين والجغرافيين العرب والصليبيين مدي قوة ومناعة مدينة عسقلان، فأشارت لقوة استحكاماتها الحربية من أسوار مرتفعة قوية وتحصينات خارجية تستطيع تحمل ضربات المنجنيقات وآلات الحصار[1]. ويتكون الدفاع الاستراتيجي لعسقلان من تلال ترابية ترتفع تليها الأسوار في مسافات متكررة ومتناوبة، وتوجد بها الأبراج المكونة من مواد البناء الصلبة والأسوار التي تحيط بها واسعة ذات سمك جيد[2].

كان لعسقلان أربع بوابات، البوابة الأولي تقع في الجهة الشرقية وتسمي البوابة العظمي، ويطلق عليها أيضًا بوابة بيت المقدس لأنها تؤدي إلى بيت المقدس، ويحيط بها برجان عاليان أقيما لتحصين المدينة والدفاع عنها من هذه الجهة، أما البوابة الثانية فتقع غرب المدينة وتسمي بوابة البحر لأنها تؤدي إلى البحر المتوسط، وتقع البوابة الثالثة جنوب المدينة وتؤدي لمدينة غزة لذا عرفي ببوابة غزة، وتقع البوابة الرابعة في الجهة الشمالية للمدينة وتسمي ببوابة يافا لأنها تؤدي إلى مدينة يافا الواقعة إلى الشمال من عسقلان[3].

ويمكننا أن ندرك الآن؛ أن عسقلان بحكم موقعها ليست فقط بوابة بيت المقدس بل أيضًا بوابة مصر، ولهذا حرص السلطان الأيوبي على عدم وقوعها في يد الصليبيين حتى لا يقطعون بها الطريق إلى مصر. فقد كانت مصر طوال الفترة التي شغلها حكم صلاح

بما فيها من الفضل" أنظر: ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، دار صادر، ب.ط، بيروت، ب.ت، ص103.

(1) صلاح الدين محمد نوار، العدوان الصليبي علي العالم الإسلامي، دار الدعوة، الطبعة الأولي، الإسكندرية 1993، ص313.

(2) أسامة سيد علي أحمد، الساحل الشامي في القرن الثاني عشر الميلادي السادس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف أحمد رمضان أحمد، كلية الآداب- جامعة عين شمس، القاهرة 1992، ص146.

(3) مصطفي العسقلاني، الرسالة السابقة، ص35.

الدين الأيوبي، القاعدة الأساسية التي انطلقت منها الجيوش والإمدادات البشرية والتموين الاقتصادي[1].

أما بالنسبة لريتشارد؛ فلعله أدرك أن عسقلان بحكم موقعها نقطة عسكرية أمامية للقادة المصرية ومركزًا متقدمًا يسمح بتوجيه الضربات على الرملة ويافا وعن طريقها يمكن فصل القدس عن البحر[2]. ولهذا سعي إلى إعادة تعميرها حتى يضمن تأمين حدود بيت المقدس من الجنوب.

وهكذا؛ يتضح أن البند الخاص بتخريب عسقلان في هدنة الرملة يظهر بجلاء مدي حرص السلطان على لتحقيق الأمن لمصر. ويذكر أن ريتشارد رحل إلى بلاده وفي رأسه أن الطريق إلى مملكة بيت المقدس يبدأ أولاً بمصر، وقال بضرورة تنفيذ هذه الفكرة أكثر من واحد من رجاله قبل رحيلهم عن الشرق[3].

أما بالنسبة لعسقلان فبعد أن عقدت الهدنة بعث السلطان إليها مائة من النقابين والحجارين لتنفيذ عملية التخريب بعد إخراج الصليبيين منها[4]. وبهذا تم تخريبها للمرة الثانية.

والآن؛ نصل إلى رؤية شاملة لأحداث المفاوضات يمكن إجمالها في النقاط كالآتي:

أولاً- أن أخطر الوسائل في الدبلوماسية هي اكتساب الوقت واختراع الأفكار للتسوية وهذا ما حرص عليه الطرفان أثناء مسيرة المفاوضات بينهم، ففي حين عمل العادل على اكتساب الوقت بشتى الطرق الممكنة والتي منها التردد في الإجابة على مطالب ريتشارد، قابل الأخير هذا بدهاء سياسي عمد فيه إلى تقديم مقترحات عديدة للوصول إلى مأربه من هذه الحملة وهو

---

(1) رأفت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، عين للدراسات الإنسانية، الطبعة الأولي، الجيزة 1998، ص161.

(2) أسامة سيد، الرسالة السابقة، ص148.

(3) رأفت عبد الحميد، المرجع السابق، ص161؛ محمد مؤنس، العلاقات بين الشرق والغرب، ص250.

(4) ابن شداد، المصدر السابق، ص348-349؛ ابن سباط، المصدر السابق، ص205.

استرجاع الأرض المقدسة بأي وسيلة.

ثانيًا- أثرت الحالة العسكرية للجانبين بالإضافة إلى الضغوط الداخلية في سير المفاوضات، فبينما دفعت الأولي الجانب الصليبي للدخول في المفاوضات، أدت الثانية بالمسلمين إلى قبول مبدأ التفاوض نظرا للحالة السيئة التي كانت عليها البلاد من طول فترة الحرب.

كما يلاحظ أن أسلوب صلاح الدين في الرد على رسائل ريتشارد كان يجمع في الغالب بين الكياسة واللباقة والثقة بالنفس، في حين امتازت رسائل قلب الأسد بطابع الشدة والتهديد والترغيب بالإضافة إلى اعتماده على المراوغة وعد التزامه بما يتفق عليه فقد كان دائما يعدل في مقترحاته ويقتصد في طلباته، بل كان يخلط الجد بالهزل حين عرض فكرة المصاهرة السياسية كحل يمكن الإرتكان إليه للوصول إلى صلح بين الجانبين.

ثالثًا- نشأت بين الملك العادل والملك ريتشارد خلال المفاوضات مودة وصداقة متبادلة دفعت كلا منها إلى أن يحتفي بالآخر حين يلقاه. فقد كان العادل يحمل بعض الطعام والتحف والهدايا لريتشارد حين يلقاه، كما يفعل الأخير بالمثل معه بل تطور الأمر لأكثر من هذا لنجد أن ريتشارد كان يطلب من العادل أن يكون وسيطا له عند شقيقه السلطان فيحصل منه على الموافقة لمقترحاته التي كان السلطان قد رفضها في السابق.

وفي هذا الدليل الناصع على أن ريتشارد عمد إلى استخدام كل شيء وأي شيء للوصول إلى أهدافه حتى لو كان استخدام تلك العلاقة الحميمة التي نشأت بينه وبين العادل والتي كان يوجها لخدمة أغراضه.

رابعًا- أظهرت هذه المفاوضات بجلاء مدي توحد الجانب الإسلامي وتماسكه، فعلي مدار المفاوضات نلاحظ هذا التوحد الذي جمع بين صلاح الدين وأمرائه من خلال مجلس المشورة الذي كان ينعقد للنظر في أمور البلاد ومدي احتياجها للصلح. كما كان هذا المجلس عونًا للسلطان في دراسة

مقترحات ريتشارد وتقييمها، إلا أنه قد ترك الرأي للسلطان في أمر مشروع الزواج دون مناقشته ولعل ذلك كان من أبرز الدلائل على استنكار المسلمين لهذا الأمر.

ومن جهة أخري؛ أوضحت المفاوضات مدي تمزق الجانب الصليبي وانشقاقه، فلم يكن قادة الجيش يختلفون فيما بينهم فحسب بل اختلف الأمراء والملوك، ففي البداية كان الخلاف بين الملك الإنجليزي والملك الفرنسي مما أدي لرحيل الأخير عن الشرق، ثم تطور الأمر لخلاف بين الصليبيين المحليين في صورة المركيز كونراد مع الصليبيين الواردين في صورة الملك ريتشارد. وهذا ما أدي بالرجلين إلى طريق الحقد والكراهية.

خامسًا- كان العامل الجغرافي وراء الدبلوماسية ومسيرة المفاوضات، فقد أدت مدينة عسقلان إلى عرقلة المفاوضات أكثر من مرة نظرًا لما لها من أهمية في الربط بين الساحل الشامي والساحل المصري. ومن الملاحظ أنه في حين سارع صلاح الدين بتخريب عسقلان حتى لا تقع في يد الصليبيين، تثاقل الصليبيين في الاستيلاء عليها مما أعطي السلطان فرصة كافية لتدمير المدينة. وقد كان التباطؤ في الاستيلاء على المدينة أمرًا طبيعيًا مع وجود الانقسامات بين القادة بين مؤيدين للسيطرة على المدينة ومعارضين رأوا ضرورة التوجه إلى يافا أولاً ثم إلى بيت المقدس.

بيد أن وقوع المدينة في يد ريتشارد بعد ذلك وتعميره لها وإدراكه لأهميتها أدي لتوقف المفاوضات أكثر من مرة، وإذا كان في النهاية لم يتركها إلا مجبرًا فلعله لم يوافق على أن تكون للمسلمين إلا إذا تم تخريبها.

ومن ناحية أخرىأدي إدراك صلاح الدين لأهمية هذه المدينة على أمن مصر لموافقته على تخريبها كي تكون بيد المسلمين حتى ولو كانت خربة فهذا أفضل من أن تكون بيد الصليبيين محصنة قوية.

سادسًا- كان ريتشارد يجمع في إدراكه بين الواقع العسكري والواقع

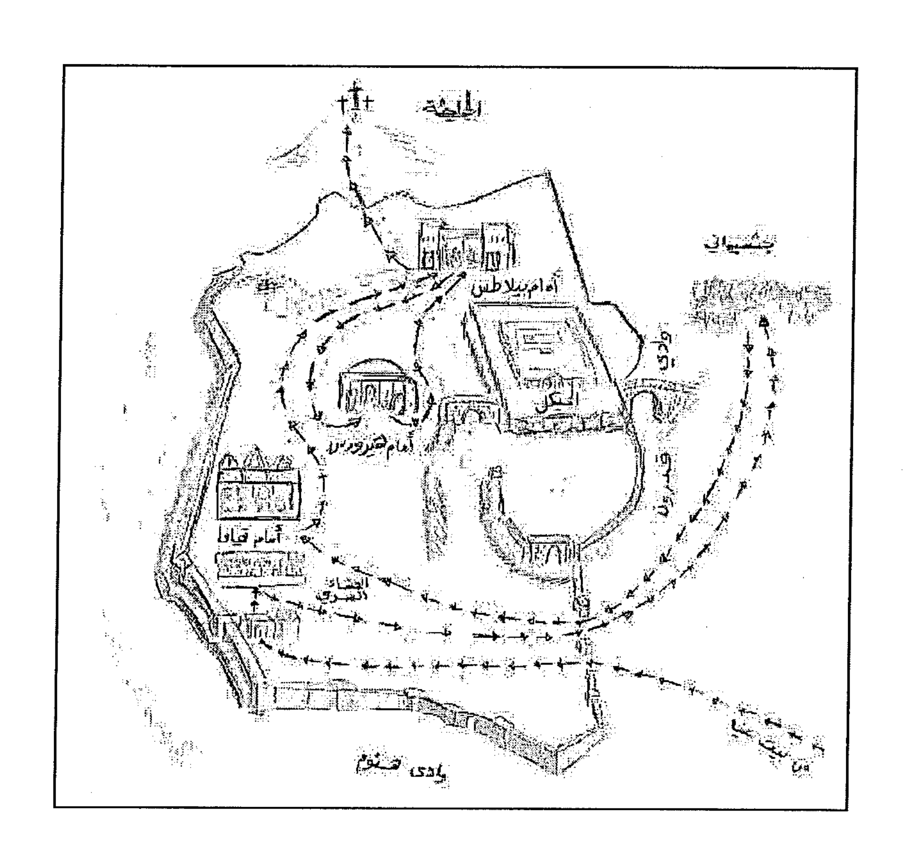
الدبلوماسي، ففي حين كان يفرض شروطًا قبل معركة أرسوف، كاد يقبل شروطًا أكثر في هدنة الرملة مثل التنازل عن عسقلان. ومن زاوية أخري؛ فإن انتصاره في معركة عكا وأرسوف لم يحدث تغيير في الهدف الذي جاء من أجله، بيد أنه إذا كان لم يحصل عليه في أرض المعركة فإنه لم يحصل عليه على مائدة التفاوض آلا وهو بيت المقدس.

سابعًا- كانت المفاوضات بين الجانبين عبارة عن حرب دبلوماسية أيوبية - صليبية انتهت بانتصار دبلوماسي أيوبي وهو هدنة الرملة. فبعد عام كامل من التفاوض حافظت هذه الهدنة على غالبية مكاسب معركة حطين التي حققها المسلمين، كما أصابت الصليبيين بخيبة أمل بعد أن فشلوا في الاستيلاء على بيت المقدس. أما بالنسبة للصليبيين فقد كان احتفاظهم بمدينة عكا وحيفا وقيسارية وأرسوف ويافا بمثابة مكسب لهم، مع الأخذ في الاعتبار أنهم لم يحصلوا على هذه المناطق بمقتضي الهدنة التي عقدوها مع المسلمين وإنما كانت نتاج العمل العسكري وما حققوه من مكاسب على أرضية الصراع.

ثامنًا- وضعت هدنة الرملة حدًا لصراع عنيف بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام، كما أنهت أحداث عاصفة شارك فيها كبار ملوك وأباطرة أوربا مع أعظم قادة العرب. كما أنهت فترة طويلة من الحرب قاسي فيها الفريقين العديد من الآلام، فكانت فرحتهم بالهدنة ومبادرة كل منهما إلى الاختلاط بالفريق الثاني في مودة وتسامح.

الملاحق

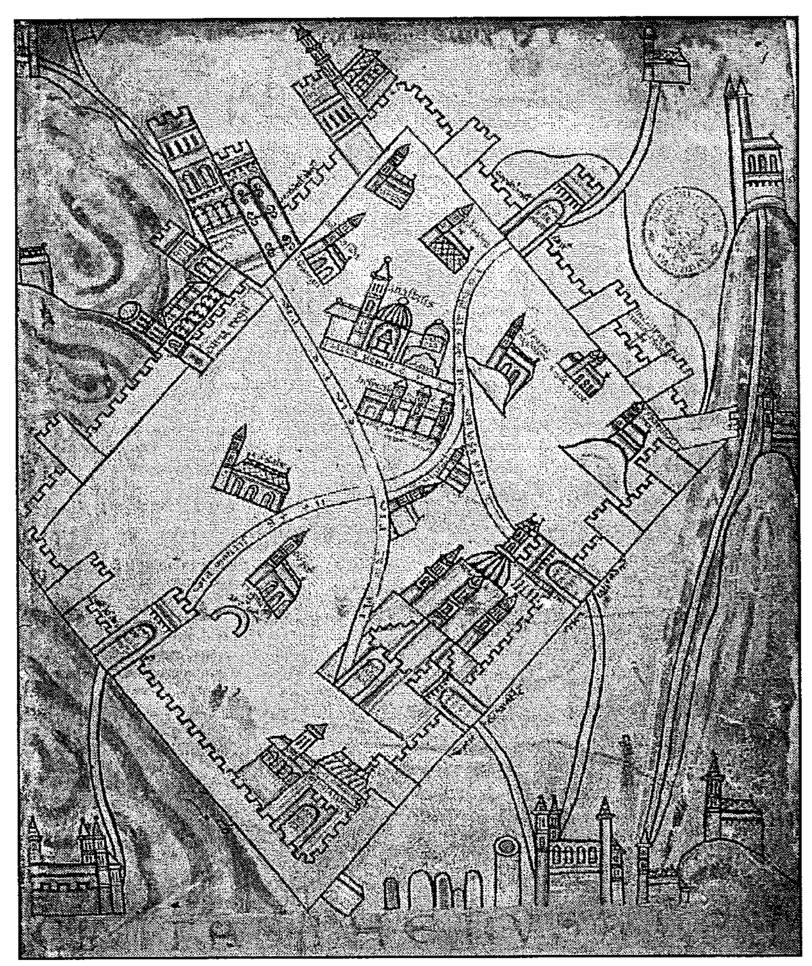




شكل تخطيطي رقم (1) القدس القديمة في زمن المسيح

يوضح مسيرة يسوع منذ دخوله إلى أورشليم وصولاً إلى تل الجلجثة

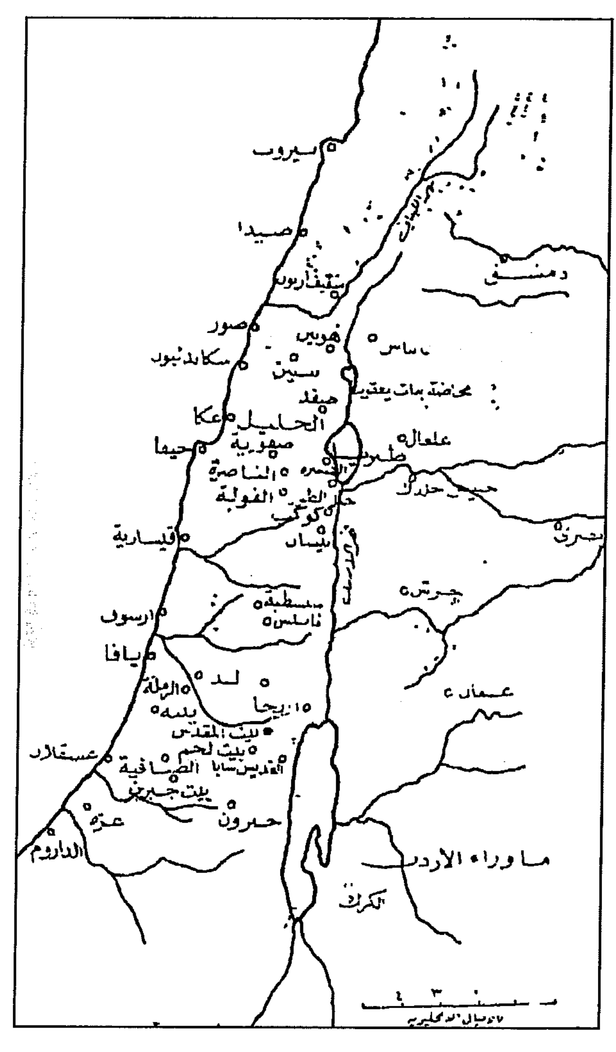
المصدر: الكنيسة العربية: **(http:// www.arabchurch.com)**



خريطة رقم (1) القدس خلال القرنيْن الثاني عشر والثالث عشر

توضح مدينة القدس على شكل مُعيّن يحيط به سور تخترقه خمسة أبواب، فترد عند الجانب الشمالي من السور إلى جانب صليب أحمر معقوف العبارة القائلة: "هذه هي المدينة التي سقطت في يد الإفرنج"، وهي عبارة تذكرنا بالثغرة التي تسللت عبرها جيوش الإفرنج ودخلت المدينة في سنة 1099.

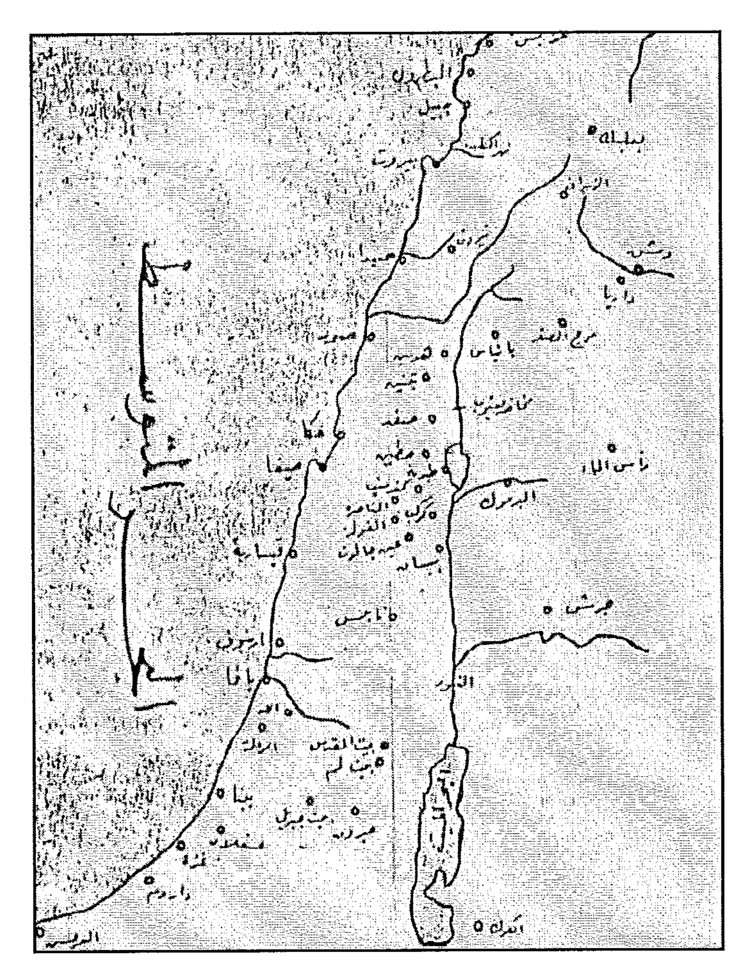
المصدر: موقع التراث المتوسطي قنطرة: (http://www.qantara-med.org)



خريطة رقم (2)

مملكة بيت القدس في القرن الثاني عشر

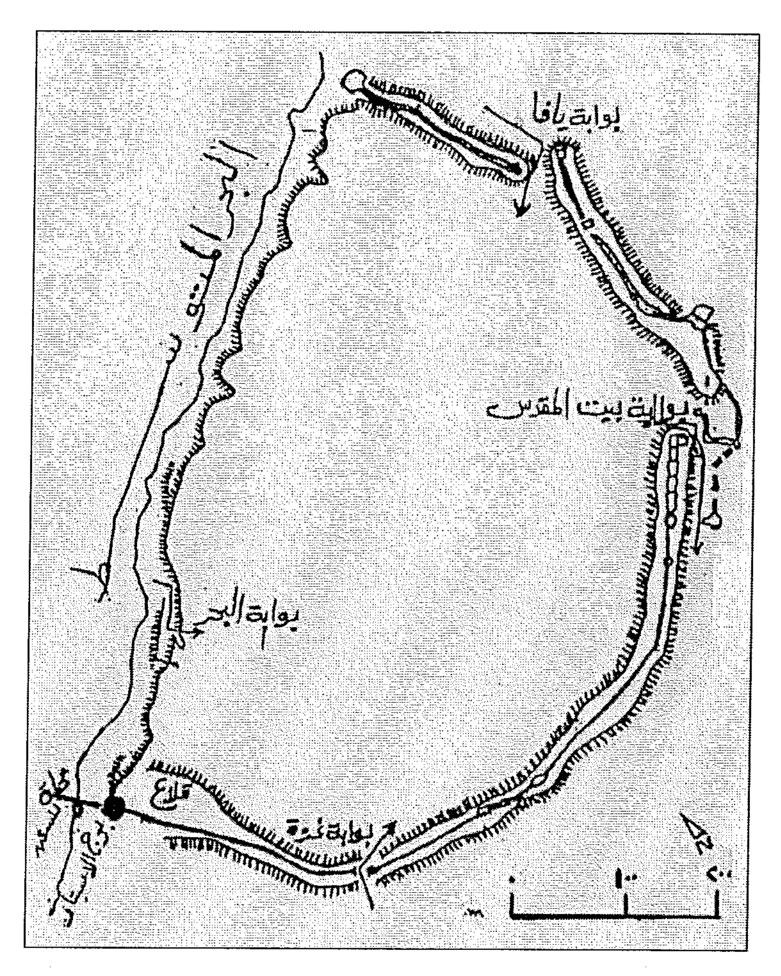
المصدر: ستفين رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ص221.



خريطة رقم (3)

فلسطين زمن الحروب الصليبية

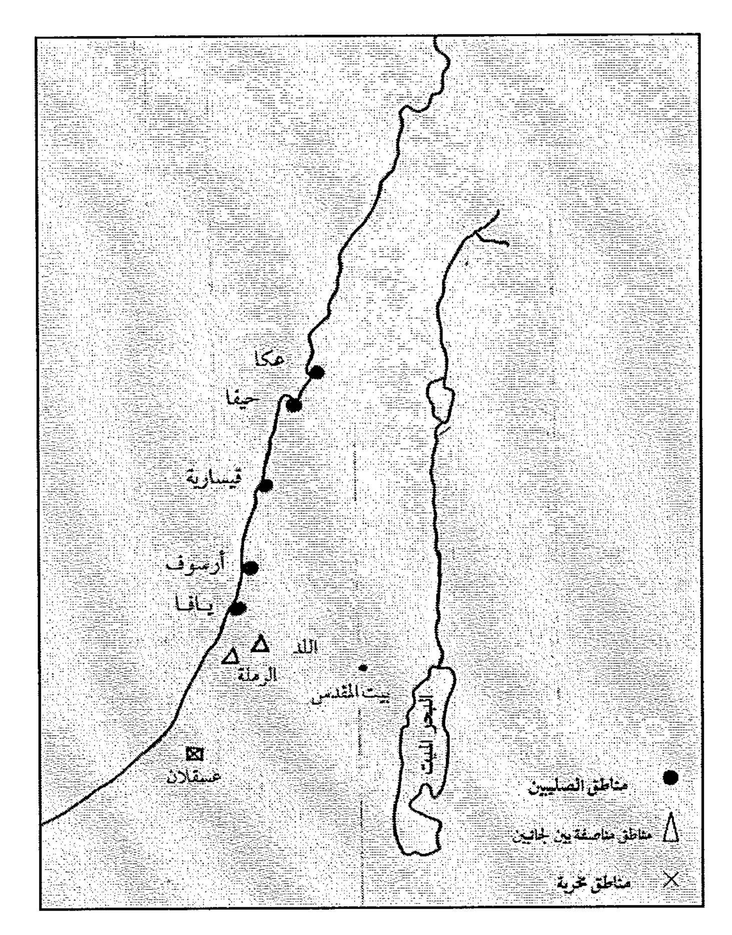
المصدر: محمد مؤنس، العلاقات بين الشرق والغرب، ص389.



شكل تخطيطي رقم (2)

بوابات مدينة عسقلان وتحصيناتها الدفاعية

المصدر: مصطفي العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبي، ص34.



خريطة رقم (4)

بنود هدنة الرملة 1192م

المصدر: إعداد صاحب الدراسة.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية والمعربة

- القرآن الكريم

- ابن الأثير: (عز الدين محمد ابن عبد الواحد الشيباني ت 630هـ/ 1232م)، الكامل في التاريخ، المجلد الثاني عشر، دار صادر، الطبعة الثالثة، بيروت، 1982.

- ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1963.

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، (ت. 597ه/ 1201م)، "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413ه/ 1992م.

- ابن العبري: (غريغوريوس ت. 685هـ/ 1256م)، تاريخ الزمان، تحقيق اسحق أرمله، دار المشرق، ب.ط، بيروت 1991 ؛ تاريخ مختصر الدول، ب.د، الطبعة الأولى، ب.م، ب.ت.

- ابن العديم، كمال الدين أبي القاسم عمرو بن أحمد بن هبة الله (ت. 626هـ / 1261م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996؛ بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، الجزء الأول، دار الفكر، ب.ط ، دمشق 1988.

- ابن العماد الحنبلي عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبوالفلاح (ت. 1089ه/ 1678م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، - عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، 1989.

- ابن الفرات: (ناصر الدين محمد ت. 807هـ/ 1404م)، تاريخ الدول والملوك، تحقيق حسن محمد الشماع، المجلد الرابع – الجزء الثاني، المطبعة الأميرية، القاهرة 1957.
- ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، دار صادر، ب.ط ، بيروت، ب.ت.
- ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن علي بن محمد، (ت. 555هـ/ 1160م)، "تاريخ دمشق"، تحقيق سهيل زكار، ط1، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، 1983.
- ابن النابلسي (عبد الغني بن إسماعيل)، الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، تحقيق رياض عبد الحميد مراد، دار المعرفة الطبعة الأولى، دمشق 1989.
- ابن الوردي: (أبو حفص زين الدين ت. 749 هـ/ 1349م)، تاريخ ابن الوردي، الجزء الثاني، ب.د، الطبعة الثانية، النجف 1969.
- ابن إياس: (محمد ابن إياس الحنفي)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الأول- القسم الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة 1982.
- ابن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله ت 732هـ/ 1331م)، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، الجزء السابع، ب.د، ب.ط، القاهرة 1972.
- ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، الجزء الأول، دار إحياء العلوم، الطبعة الثانية، بيروت 1992.
- ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين، (ت. 874هـ/ 1470م)، "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، 16 جزء، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ/ 1992م.
- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت.614هـ/ 1217م)، رحلة ابن جبير، تحقيق: حسين نصار، القاهرة، 1955.

- ابن حوقل: (أبو القاسم بن حوقل ت380هـ)، صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، ب.ط، القاهرة، 1998.
- ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد ت. 808 هـ/ 1405م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر، الجزء الخامس، مؤسسة جمال للنشر، ب.ط، بيروت، ب.ت.
- ابن خلكان: (أبو العباس شمس الدين ت681 هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، المجلد السابع، ب.د، ب.ط، بيروت 1994.
- ابن سباط: (حمزة بن أحمد)، صدق الأخبار، تحقيق عمر عبد السلام، الجزء الأول، جروس برس، الطبعة الأولى، طرابلس 1993.
- ابن شاهين: (غرس الدين خليل ت. 872 هـ/1467م)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بول رافيس، المطبعة الجمهورية ب.ط، باريس 1893.
- ابن شداد: (القاضي بهاء الدين ت. 632 هـ/ 1234م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، القاهرة 1994.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله، (ت. 571هـ/ 1175م)، "تاريخ مدينة دمشق"، 80 جزءً، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1997.
- ابن قاضي شهبة، بدر الدين محمد بن أحمد (ت. 874هـ/ 1469م)، الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971.
- ابن كثير: (الحافظ عماد الدين إسماعيل ت. 744هـ/ 1373م)، البداية والنهاية، المجلد السادس، دار الغد العربي، الطبعة الأولى، القاهرة 1991.
- ابن كثير، طبقات الفقهاء الشافعيين"، جزءان، تحقيق أحمد عمر هاشم ومحمد زينهم عزب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1993.

- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (ت.711هـ / 1311م)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، 1993.
- ابن ميسر: أخبار مصر، ج2، تصحيح هنري ماسيه، ط. المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة 1919.
- ابن واصل، جمال الدين، محمد بن سالم (ت.697هـ/ 1297م) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الجزء الأول، تحقيق: جمال الدين الشيال، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة،1957.
- أبو الفداء: (عماد الدين إسماعيل محمد ت. 732هـ/ 1332م)، تقويم البلدان، دار صادر، ب.ط، بيروت، ب.ت؛ المختصر في أخبار البشر، الجزء الثالث، مكتبة المتنبي، ب.ط ، القاهرة، ب.ت .
- أبو شامة، شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، (ت. 665هـ/ 1266م)، "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية"، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت،1997.
- الإدريس: (الشريف الإدريس ت. ق6 هـ/ 12م)، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، ب.ط، القاهرة 1994.
- أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتى، مطبعة جامعة برنستون 1930.
- الأسنوي، عبد الرحيم بن الحسن (ت. 772هـ / 1370م)، طبقات الشافعية، تحقيق: عبد الله الجبوري، بغداد، 1972هـ.
- الإصطخري: (أبو اسحق إبراهيم)، مسالك الممالك، دار صادر، ب.ط، بيروت، ب.ت.

- البغدادي: (صفي الدين عبد المؤمن)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البيجاوي، المجلد الثاني، دار الجيل، بيروت 1992.
- البنداري، قوام الدين الفتح بن علي(من مؤرخي ق7 ه/ 13م) سنا البرق الشامي، مختصر لكتاب البرق الشامي لعماد الدين الأصفهاني الكاتب، تحقيق: فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، مصر، 1979.
- التدافي، محمد بن يحيى، قلائد الجوهر في مناقب عبد القادر، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1956.
- الحريري: (أحمد بن علي)، الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق سهيل زكار، دار الملاح، ب.ط ، دمشق 1981.
- الحميري: (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان الطبعة الثانية، بيروت 1984.
- الحنبلي: (أبو اليمن القاضي مجير الدين)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، الجزء الثاني، المطبعة الحيدرية، ب.ط، النجف 1968.
- الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهد (ت. 463ه/ 1072م)، تاريخ بغداد وذيوله، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت،1997.
- الذهبي: (الحافظ شمس الدين أبو عبد الله ت. 748 هـ/ 1348م)، دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل مزوه، الجزء الثاني، دار صادر، الطبعة الأولى، بيروت 1999؛ العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الجزء الرابع، وزارة الإرشاد والأنباء، ب.ط ، الكويت 1963.

- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (748هـ/ 1347م): العبر في خبر من غبر، 4 أجزاء، حققه وضبطه أبو هاجر محمد السعيد ابن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (748هـ/ 1347م): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام"، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1999م.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (748هـ/ 1347م): سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1985م.
- السائح الهروي: (أبو الحسن علي ت. 611 هـ/ 1215م)، الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق دومنيك سورديل، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ب.ط، دمشق 1953.
- سبط بن الجوزي، شمس الدين يوسف، (654هـ/ 1256م)، "مرآة الزمان في تاريخ الأعيان"، ج1، تحقيق، إحسان عباس، دار الشروق، بيروت،1991م، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند،1951م
- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت: 771هـ/ 1369م) طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، بيروت، دار الكتب العلمية
- السمعاني عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي، أبو سعد (ت. 562هـ/ 1167م): الأنساب، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1962.

- السمعاني عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي، المنتخب من معجم شيوخ السمعاني، دراسة وتحقيق: موفق بن عبد الله ابن عبد القادر، دار عالم الكتب، الرياض، 1996م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت 764هـ/ 1362م)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 2000.
- العظيمي، محمد بن علي الحلبي(556هـ/ 1161م)، تاريخ حلب تحقيق: إبراهيم زعرور، (د،ن)، دمشق 1984.
- العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، (519-597) تحقيق وشرح وتقديم؛ محمد محمود صبيح، القاهرة 1965.
- عماد الدين الأصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، تحقيق محمد على طعاني، مؤسسة حمادة لدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، الأردن، اربد، 2003.
- عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، تحقيق: شكري فيصل دمشق،1973.
- عماد الدين الأصفهاني، محمد بن محمد بن حامد(597هـ/ 1125م): تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الفتح بن علي البنداري(ت643هـ/ 1236م)، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديد، بيروت، 1980.
- العماد الكاتب الأصفهاني: (محمد بن محمد ت. 597 هـ/ 1201م)، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، المطبعة الخيرية، ب.ط ، القاهرة 1965.
- القرماني: (أبو العباس أحمد بن يوسف)، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، مكتبة المتنبي، ب.ط، القاهرة، ب.ت.

- القزويني: (زكريا بن محمد ت. 682هـ/ 1283م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، ب.ط، بيروت، ب.ت.

- مجهول، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، تحقيق: سهيل زكار، ضمن كتاب الحروب الصليبية، دار حسان، دمشق، 1974.

- المقدسي البشاري: (شمس الدين ت. 375هـ/ 985م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، الطبعة الثانية، ليدن 1909.

- المقريزي: (تقي الدين أحمد ت. 845 هـ/ 1441م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفي زيادة، الجزء الأول- القسم الأول، ب.د، الطبعة الثانية، ب.م، ب.ت.

- المقريزي، اتعاظ الحُنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلفا، جزءان، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001.

- مؤرخ الجستا المجهول: (فارس صليبي في جيش بوهيمند عاصر القرن 5هـ/ 11م)، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة وتحقيق حسن حبشي، الجزء الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ب.ط، القاهرة 2000.

- النويري: (شهاب الدين أحمد ت. 733هـ/ 1332م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد محمد أمين وحلمي محمد أحمد، الجزء الثامن والعشرون، دار الكتب المصرية، ب.ط، القاهرة 1992.

- وليم الصوري: (ت. 1185م/ 581هـ)، تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، تحقيق سهيل زكار، الجزء الثاني، دار الفكر، الطبعة الأولى، دمشق 1990.

- وليم الصوري، الحروب الصليبية/ ترجمة وتعليق: حسن حبشي.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992. (ج2).

- اليافعي: (أبو محمد عبد الله ت. 768 هـ/ 1366م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، الجزء الثالث، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، القاهرة 1993.
- اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان، (ت 768هـ/ 1366م)، "مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان"، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1993.
- ياقوت الحموي: (شهاب الدين أبو عبد الله ت. 676 هـ/ 1228م)، معجم البلدان، المجلد الرابع، دار صادر، الطبعة الثانية، بيروت 1995.
- ياقوت الحموي، معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلي معرفة الأديب)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1993.
- اليعقوبي: (أحمد بن أبو يعقوب الكاتب)، البلدان، المطبعة الحيدارية، الطبعة الثالثة، النجف 1957.
- ثانيًا: المراجع العربية والمعربة
- ابتسام رسول حسين، "الغزو الصليبي للقدس: الجذور والتأريخ".- مجلة التراث العلمي العربي (جامعة بغداد) - الإصدار2 السنة 2010.
- إبراهيم سعيد فهيم محمود، يافا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي (1099-1291)، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف جوزيف نسيم يوف ، كلية الآداب- جامعة الإسكندرية، الإسكندرية 1991.
- اتش.إ.ماير، تاريخ الحملات الصليبية، الجزء الأول، ترجمة محمد الشاعر، دار الأمين، الطبعة الأولى، القاهرة 1999.
- أحمد دراج، وثائق دير صهيون في القدس الشريف.- القاهرة: مكتبة الأنجلو، 1968.

- أحمد شلبي، مقارنة الأديان.- ط1.- القاهرة: مكتبة النهضة، 1993. (ج2، المسيحية).
- أحمد مختار العبادي، "دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي"، ضمن بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، ألقيت في ندوة الحضارة الإسلامية (16-20 أكتوبر 1976م) مؤسسة شباب الجامعة، 1997.
- أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية/ ترجمة: علي السيد علي.- ط1.- القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010.
- ارنست باركر، الحروب الصليبية/ ترجمة: السيد الباز العريني.- ط2.- بيروت: دار النهضة العربية، 1967.
- ارنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، الطبعة الرابعة، بيروت 1967.
- أسامة سيد علي أحمد، الساحل الشامي في القرن الثاني عشر السادس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف أحمد رمضان أحمد، كلية الآداب- جامعة عين شمس، القاهرة 1992.
- إسحاق تاوضروس عبيد، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قنسطنطين (869-1204) - القاهرة: دار المعارف، 1970.
- آسيا سليمان نقلي، دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين، الرياض، مكتبة العبيكلي، 2001.
- أشرف صالح محمد سيد، الدبلوماسية الأيوبية الصليبية (1191-1192) - بيروت: شركة الكتاب العربي الإلكتروني، 2007. (سلسلة المؤرخ الصغير، 2)

- أشرف صالح محمد سيد، مقال بعنوان "حركة الحج المسيحي إلى فلسطين: من القرن الرابع إلى القرن الحادي عشر الميلادي"، الفسطاط: المجلة التاريخية - الولايات المتحدة (www.fustat.com) - عدد أيلول وتشرين الأول 2007.

- أشرف صالح محمد، "المصاهرة السياسية بين التاجين الأيوبي والإنجليزي"، بوابة أنفاس: الأرشيف الرقمي العربي (http:// www.anfasse.org).- هوية ودراسات تاريخية.- منشور بتاريخ 26 فبراير 2008.

- أشرف صالح محمد، "حركة الجهاد الكبرى 583هـ - 1187م"، موقع الركن الأخضر.- ركن السياسة: العالم الإسلامي (http://www.grenc.com).- منشور بتاريخ 4 أبريل 2008.

- أشرف صالح محمد، "الشخصية الرومانتيكية في عصر الحروب الصليبية"، مجلة أدب فن: ثقافية إلكترونية تعنى بكل أشكال الكتابة الإبداعية (http://www.adabfan.com).- منشور بتاريخ 16 يونيو 2009.

- أشرف صالح محمد سيد، قراءة في تاريخ وحضارة أوربا العصور الوسطى/ تقديم: فتحي عبد العزيز محمد.- ط2.- القاهرة، 2011.

- أشرف صالح محمد، ملف العدد: "أسطورة المُخلِّص: صلاح الدين الأيوبي نموذجًا".- مجلة الثقافة الجديدة (الهيئة العامة لقصور الثقافة) القاهرة.- ع284 مايو 2014.

- أمين معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب/ ترجمة: عفيف دمشقية.- ط2.- بيروت: دار الفارابي، 1998.

- أنتوني ويست، الحروب الصليبية/ ترجمة: شكري محمود نديم.- بغداد: شركة النبراس للنشر والتوزيع، 1967.

- بطرس توديبو، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس/ ترجمة: حسين محمد عطية.- الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1999.

- جان ريتشارد، "تكوين مملكة القدس اللاتينية"، ضمن كتاب: الصراع الإسلامي - الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى/ تحرير: هادية دجاني.- بيروت، 1994.
- جرجس فام ميخائيل، الأحوال السياسية لمملكة بيت المقدس الصليبية وعلاقاتها الخارجية (1191- 1291)، رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف فايز نجيب اسكندر، كلية الآداب- جامعة الزقازيق، الزقازيق 1989.
- جوثان ريلي سميث، ما الحروب الصليبية ؟"، ترجمة: د. محمد فتحي الشاعر، القاهرة، دار الأمين للنشر والتوزيع، 1999.
- جوناثان ريلى- سميث، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية/ ترجمة: محمد فتحي الشاعر، القاهرة، 1993.
- حاتم عبد الرحمن الطحاوي، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، عين للدراسات الإنسانية، الطبعة الأولى، الجيزة 1999.
- حسن حبشي، الحرب الصليبية الأولى.- ط1.- القاهرة: دار الفكر العربي، 1958.
- حسين الأمين، صلاح الدين بين العباسيين والفاطميين والصليبيين، دار الجديد، الطبعة الأولى، بيروت 1995.
- حمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية تبحث في الأدوار التي مرت عليها عقائد النصارى وفي كتبهم وفي مجامعهم المقدسة وفرقهم.- ط3.- القاهرة: دار الفكر العربي، 1961.
- راجع: عرفه عبده علي، القدس العتيقة: مدينة التاريخ والمقدسات.- ط1.- القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2007. (سلسلة هوية المكان)
- رأفت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، عين للدراسات الإنسانية، الطبعة الأولى، الجيزة 1998.

- زكي النقاش، الحشاشون وأثرهم في السياسة والاجتماع، رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف حسن إبراهيم حسن، كلية الآداب- جامعة القاهرة، الجيزة 1953.
- سالم محمد الحميدة، الحروب الصليبية: عهد الجهاد المبكر.- ط1.- بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1990.(ج2)
- ستانلي لين بوول، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس/ ترجمة: فاروق سعد أبو جابر.- ط1.- القاهرة: وكالة الأهرام للتوزيع، 1995.
- ستيفن رنسيمان، "تاريخ الحروب الصليبية"، ترجمة: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، 1997.
- ستيفن رنسيمان، الحملات الصليبية من كليرمونت إلى أورشليم/ ترجمة: نور الدين خليل.- القاهرة، 1994. (ج1).
- ستيفن رنسيمان، الحملات الصليبية من كليرمونت إلى أورشليم/ ترجمة: نور الدين خليل.- القاهرة، 1994. (ج1)
- ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية/ ترجمة: السيد الباز العريني.- ط3.- القاهرة: د.ن، 1993. (الحروب الصليبية وقيام مملكة بيت المقدس).
- سعيد أحمد برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، ب.د، ب.ط، بيروت 1984.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، "شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية".- ضمن كتاب: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى.- بيروت: دار الأحَد، 1977.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية.- القاهرة: دار القلم، 1964.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية.- ط4.- القاهرة: مكتبة الأنجلو، 1986. (ج1)

- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، الجزء الثاني، مكتبة الأنجلو، الطبعة السادسة، القاهرة 1994.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، الناصر صلاح الدين، الدار المصرية للتأليف ، ب.ط، ب.م، ب.ت.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى.- القاهرة: دار النهضة العربية، 1991.
- سعيد عبد الله البيشاوي، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية.- الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1990.
- سهير محمد مليجي علي، حلب في القرن الثاني عشر الميلادي السادس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف علية عبد السميع الجنزوري، كلية البنات- جامعة عين شمس، القاهرة 1996.
- سيد أحمد علي الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري.- ط3.- القاهرة: دار النهضة العربية، 1996.
- السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ1، دار النهضة العربية، ب.ط ، القاهرة 1963.
- سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، ترجمة رياض رأفت، دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى، القاهرة 2001.
- شاكر مصطفي، التاريخ العربي والمؤرخون، ج2، الطبعة الثانية، دار العلم، بيروت 1979.
- شوقي شعث، القدس الشريف.- الرباط: بابل للطباعة والنشر، 1988.

- صلاح الدين محمد نوار، العدوان الصليبي على العالم الإسلامي (490-515هـ/ 1097-1121م) - ط1.- الإسكندرية: دار الدعوة، 1993.
- عادل عبد الحافظ عثمان، العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامي.- القاهرة: مكتبة مدبولي، 1989.
- عارف باشا العارف، تاريخ القدس، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة 1994.
- عباس عاجل جاسم الحيدري، سمير صالح حسن العمر، "الحروب الصليبية: تطور المصطلح والمفهوم".- مجلة جامعة بابل للعلوم الصرفة والانسانية.- المجلد: (19)، الاصدار: (4)، 2011.
- عبد الحميد الكاتب، القدس: الفتح الإسلامي، الغزو الصليبي، الهجمة الصهيونية.- طبعة خاصة.- القاهرة: دار الشروق، 1998.
- عبد العظيم رمضان، مقال بعنوان "خواطر مؤرخ".- جريدة الجمهورية (القاهرة) - العدد 17553، بتاريخ 18 يناير 2002.
- عبد الفتاح حسن الزيات، ماذا تعرف عن المسيحية.- ط3.- ب.م: مركز الراية للنشر، 2001.
- عبد المنعم ماجد، "بيت المقدس بين الفاطميين والسلاجقة".- مجلة التاريخ العربي (جمعية المؤرخين المغاربة) - ع11 صيف 1999. متاح بتاريخ 30 مارس 2013.
- عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطي، مكتبة الجامعة العربية، ب.ط، بيروت 1996.
- عبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر: التاريخ السياسي.- ط4.- القاهرة: دار الفكر العربي،1994.

- عزيـز سوريــال عطيـة، الحـروب الـصليبية وتأثيرهـا علـى العلاقـات بـين الـشرق والغرب/ ترجمة: فيليب صابر سيف.- ط2.- القاهرة: دار الثقافة، 1990.
- عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمـة فيلـب صـابر سـيف، دار الثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة 1972.
- عفاف سيد صـبره، العلاقـات بـين البندقيـة ومـصر والـشام (1100- 1400)، دار النهضة العربية، ب.ط، القاهرة 1983.
- علي زيعور، أوغسطينوس.- ط1.- الدار البيضاء: دار إقرأ، 1983.
- عليـه عبـد الـسميع الجنـزوري، الحـروب الـصليبية: المقـدمات الـسياسية.- ط1.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999.
- عمر كمال توفيق، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الـصليبيين، ب. د، ب.ط، الإسكندرية 1986.
- فتحي عبد العزيز محمد، أشرف صالح محمد، "الكنيسة في مملكـة بيـت المقـدس عـصر الحروب الصليبية".- مجلة علوم الإنـسان والمجتمـع (جامعـة محمـد خيـضر بـسكرة - الجزائر).- العدد (9)، مارس2014.
- فتحي عبد العزيز محمد، أشرف صالح محمد، الكنيسة ودورها في مملكة بيت المقـدس اللاتينية (1099 – 1187).- القاهرة: منشورات كان التاريخية، 2014.
- فـريـال محمود عباس قطان، الحجاز في ظـل الدولـة الأيوبيـة، رسـالة دكتـوراه غـير منـشورة، إشـراف الـسيد عبـد العزيـز سـالم، كليـة الآداب- جامعـة الإسـكندرية، الإسكندرية 1990.
- فوشيه الشارتري، تاريخ الحملـة إلى القـدس (1095-1127)/ ترجمـة: زيـاد جميـل العسلي.- ط1.- عمان: دار الشروق، 1990.

- فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، تحقيق: زياد العسلي، دار الشروق، عمان، 1990.
- فيلب حتى، صانعوا التاريخ، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، الطبعة الثانية، بيروت 1908.
- فيليب حتى، مختصر تاريخ لبنان/ تعريب: كمال اليازجي.- بيروت: دار الثقافة، د.ت.
- قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى: نصوص ووثائق تاريخية.- ط1.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، 2001.
- قاسم عبده قاسم، الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية: دراسة عن الحملة الأولى (1095-1099م) - ط1.- الجيزة: عين للبحوث والدراسات، 1999.
- قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية.- الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مايو 1990. (سلسلة عالم المعرفة، 149).
- قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية: الأيديولوجية، الدوافع، النتائج.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، 1993.
- كارين أرمسترونج، القدس: مدينة واحدة، عقائد ثلاث/ ترجمة: فاطمة نصر، محمد عناني.- القاهرة: دار سطور للنشر والتوزيع، 1998.
- كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية/ ترجمة: أحمد الشيخ.- ط1.- القاهرة: سينا للنشر، 1995.
- لؤي البواعنة، دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي(الصليبي) للمشرق الإسلامي، دار اليازوري العلمية، الأردن، عمان، (د.ت).

- ماجد عرسان الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، دار الصقر، الإمارات العربية المتحدة، دبي، 2002.
- محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب.- ط2.- بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982.
- محمد بيومي مهران، المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الثاني، دار المعرفة الجامعية، ب.ط، الإسكندرية 1999.
- محمد بيومي مهران، بنو إسرائيل.- الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1999. (ج2).
- محمد حلمي محمد أحمد، مصر والشام والصليبيون.- ط2.- القاهرة: دار الثقافة العربية، 1982.
- محمد سامي أحمد امطير، الحياة الاقتصادية في بيت المقدس وجوارها في فترة الحروب الصليبية (1099-1187م)/ إشراف: جمال جودة.- نابلس: كلية الدراسات العليا، 2010. (أطروحة ماجستير غير منشورة).
- محمد عباسة، "الحروب الصليبية ونزعة الحب الكورتوازي".- مجلة إنسانيات، العدد (9)، سنة 1999، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، الجزائر.
- محمد كرد علي، خطط الشام، الجزء الثاني، ب.د، الطبعة الثانية، بيروت 1969.
- محمد مؤنس أحمد عوض، الحروب الصليبية: العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين (12-13م/ 6-7هـ) - ط1.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، 1999.
- محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية (1099-1187) - ط1.- القاهرة: مكتبة مدبولي، 1997.

- محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية.- ط1.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، 1995.
- محمد مؤنس عوض، الصراع الإسلامي الصليبي معركة أرسوف، عين للدراسات الإنسانية، الطبعة الأولى، الجيزة 1997؛ العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات الإنسانية، الطبعة الأولى، الجيزة 1999؛ الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، عين للدراسات الإنسانية، الطبعة الأولى، الجيزة 1995.
- محمد مؤنس عوض، سندباد في عصر الحروب الصليبية.- ط1.- الجيزة: عين للبحوث والدراسات، 2002.
- محمود خلف، ثورات المصريين في العصر الفاطمي (969-1035) - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2012. (سلسلة تاريخ المصريين، 293)
- محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية (1095-1291) - الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2000.
- محمود علي عبد الله علي، دير كلوني ودوره في الحروب الصليبية/ إشراف: إمام الشافعي محمد حمودي سليمان.- أسيوط: كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر، 2012. (أطروحة ماجستير، قسم التاريخ والحضارة).
- مصطفى الحياري، مدينة القدس في عصر الفاطميين والفرنجة.- عمان: مكتبة عمان، 1994.
- مصطفى كمال عبد العليم، اليهود في مصر في عصري البطالمة والرومان.- القاهرة: د.ن، 1968.
- مصطفى كمال عبد العليم، محاضرات في تاريخ الإمبراطورية الرومانية.- القاهرة: كلية الآداب (جامعة عين شمس)، 1998.

- مصطفى وهبه، موجز تاريخ الحروب الصليبية.- ط1.- القاهرة: مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، 1997.
- مصطفي عبد العزيز العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، رسالة ماجستير، إشراف محمد محمد مرسي الشيخ، كلية الآداب- جامعة الإسكندرية، الإسكندرية 1992.
- مصعب حمادي نجم الزيدي، "المؤسسة الدينية: فيدولة القدس الصليبية".- مجلة جامعة كركوك للدراسات الانسانية.- المجلد: (7) الاصدار: (3) عدد خاص بمؤتمر كلية التربية، 2012.
- موسى ديب الخوري، "تاريخ القدس المسيحية قبل الإسلام".- مؤسسة القدس للثقافة والتراث (http://alqudslana- com).- منشور بتاريخ 28 مارس 2011.
- ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق/ ترجمة: إلياس شاهين.- موسكو: دار التقدم، 1986.
- ميخائيل مكس إسكندر، القدس وبيت لحم.- القاهرة: مكتبة المحبة، 1999.
- ميشيل بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني: من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر/ ترجمة: بشير السباعي.- ط1.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، 2003.
- نبيلة إبراهيم مقامي: فرق الرهبان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.- الجيزة: جامعة القاهرة، 1987. (أطروحة ماجستير غير منشورة).
- نظير حسان سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، مكتبة النهضة، ب.ط ، القاهرة 1957.

- نعمان الطيب سليمان، منهج صلاح الدين الأيوبي في الحكم والقيادة، مطبعة الحسين ، الطبعة الأولى ، القاهرة 1991.
- نورمان ف. كانتور، التاريخ الوسيط: قصة حضارة البداية والنهاية.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، 2009.
- هاملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس وآخرون، دار العلم للملايين، ب.ط، بيروت 1964.
- ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الرابع من المجلد الرابع، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، ب.ط، بيروت، ب.ت.
- وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية،(الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، (د.م)، 1990.
- يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين: مملكة بيت المقدس اللاتينية/ ترجمة: عبد الحافظ عبد الخالق البنا.- ط1.- الجيزة: عين للدراسات والبحوث، 2001.
- يوشع براور، عالم الصليبيين/ ترجمة: قاسم عبده قاسم.- القاهرة، 1980.

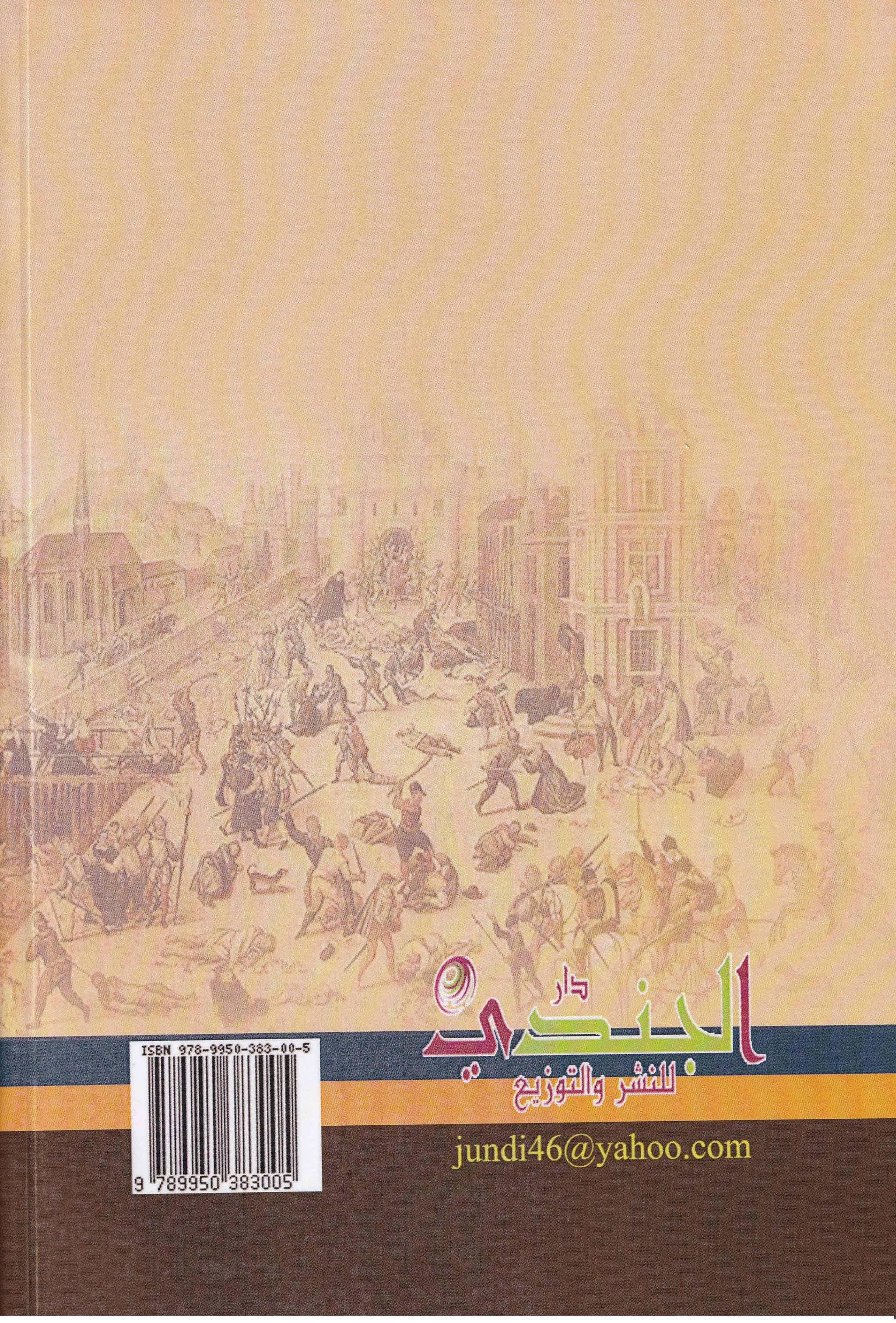
ثالثًا: المصادر والمراجع الأجنبية

- Ambroise, The Crusade of Richard Lion-Heart, translated by Hubert and John L. Lamonte, Columbia University press, New York 1941.
- Anonymous, The Deeds of the Franks and Other Piligrims to Jerusalem, ed.by Rosalind Hill, 1962.
- Barker: (Ernest), The Crusades, oxford University press, London 1949.
- Benvenisti, Moron, The Crusaders in The Holy Land.- Jeruslam, 1970.
- Benvenisti: (Meron), City of Stone the Hidden History of Jerusalem, University of California press, London 1996.
- Boase, T.S.R, Kingdoms and Strong Holds of The Crusaders, London,1971.
- Brooke: (Z.N.), A History of Europe (911-1198), first published, London 1938.

- Conder, C, R, The Latin Kingdom of Jerusalem.- London, 1897.
- Daniel, Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in The Holy Land (1106 - 1107A.D.) Annotated by Sir Wilson, in P.P.T.S., vol. IV, London,1895.
- Duggan: (Alfried), The story of The Crusades (1097-1291), faber press, first published, London 1963.
- Fulcher of Charter, A History of the Expedition to Jerusalem (1095 – 1127), trans., Rita Ryan, ed..- U.S.A: Harold Fink,1969.
- Grousset, Rm Histoire Des Croisades Et du Royaume De Jerusalem, Tom. I, Paris 1943.
- Hamilton, Bernard, The Latin Church in The Crusader States, The Secular Church.- London, 1980.
- Hillen Brand Carole, The crusades Islamic perspectives,Edinburgh university press, 2006.
- Hulme: (Edword Muslin),The Middle Ages, revised edition, New York 1938.
- Hunt Janin, Four Paths to Jerusalem: Jewish, Christian, Muslim, and Secular Pilgrimages, 1000 BCE to 2001 CE.- North Carolina: McFarland, 2006.
- Itinerary from Bordeaux to Jerusalem / 'the Bordeaux pilgrim' (333 A.D.); translated by Aubrey Stewart and annotated by Sir C.W. Wilson. London : Palestine Pilgrims' Text Society, 1896.
- J. Richard, The Political and Ecclesiastical Organization of the Crusader States, in Setton ed., A History of The Crusades, Vol. V., U.S.A.1985.
- JND Kelly, Jerome: His Life, Writings, and Controversies, New York: Harper & Row, 1975.
- John of Wurzburg, Description of the Holy Land (1160-1170 A.D.), Trans. by Aubrey Stewart, In. P.P.T.S., Vol. V., London, 1896.
- John Wilkinson, Jerusalem Pilgrims Before the Crusades.-Warminster: Aris and Philips, 1977.
- Jonathan Riley-Smith, The First Crusade and the idea of crusading.- London: 2003.
- Jonathan Sumption, The Age of Pilgrimage: The Medieval Journey to God.- Paulist Press, 200.
- Lamb: (Harlod), The Crusades the Flame of Islam, New York 1931.
- Malcolm Cameron Lyons and D.E.P.Jackson, Saladin the Politics of the Holy War, Cambridge University press, second edition, London 1997.

- Martin Windrow and Francisk Mason, A Concise Dictionary of Military Biography, Camelot press, first published, London 1975.
- Mayer: (Hans Eberhard), The Crusades, oxford University press, London 1972.
- Michaud, Joseph Francois. Histoire des Croisades.- Paris: Michaud/Pillet, 1817.
- Murray, Alan V., "The Title of Godfrey of Bouillon as Ruler of Jerusalem", Collegium Medieval 3, 1990.
- Painter: (Sidney), A History of the Middle Ages (284-1500), Second printing, New York 1954.
- Paul Alphandéry, La chrétienté et l'idée de croisade: les premiers croisades.- Paris: Michel, 1954.
- Pernoud: (Regine), The Crusades, London 1962.
- Prawer, J, The Latin Kingdom, European Colonialism in The Middle Ages, Israel, 1972.
- Riley-Smith, "The Title of Godfrey of Bouillon", Bulletin of the Institute of Historical Research 52,1979.
- Rily: (Smith), The Crusades (1095-1279), first published, London 1981.
- Robert lee Wolef and Harry W.Hazard, The Later Crusades (1189-1311), Vol.2, University of Pennsylvania press, London 1962.
- Rowe, j.g., The Papacy and Ecclesiastical Province of Tyre, 1100-1180, The John Ryland's Library vol.43, Manchester 1960-61.
- Runciman: (Steven), The History of Crusades, Vol. 3, Cambridge University press, London 1954.
- Smail, R,C, The Crusaders in Syria and The Holy Land, Great Brittan, 1974.
- Stephenson: (Caril), Mediaeval History, Harper publishers, Revised edition, New York 1953.
- Steven Runciman "The Pilgrimages to Palestine before 1095." In A History of the Crusades (Editor in Chief, Kenneth Meyer Setton) Vol. I The First Hundred Years. Edited by Marshall W. Baldwin 68-80 Madison: University of Wisconsin Press, 1969-89.
- Strickland: (Matthew), War and Chivalry, Cambridge University Press, first edition, London 1996.
- Theodrich, Theoderich's Description of the Holy Places (circ 1172AD) trans. Aubrey Stewart, In. P.P.T.S., Vol. V., London, 1896.
- Thompson, J. W., Economic and social history of the Middle Ages (300 - 1300).- London: Constable & co, 1959.

- Thompson: (James Westfall), The Middle Ages (300-1500), Vol. 1,pilmpton press, London 1931.
- Thorne: (J.O.), Chambers's Biographical Dictionary, New edition, London 1961.
- Tyerman, Christopher.- God's War: A New History of the Crusades.- Cambridge: Belknap Press of Harvard University Press, 2006.
- Walsh, Michael, ed., Butler's Lives of the Saints, New York: HarperCollins, 1991.
- William of Tyer, A History of the Deeds Done Beyond the Sea, transl. and annotated by Emily Atwater Babcock and A.C. Krery, Vol. I, Colombia University Press,1943.
- William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea/ trans. Emily A. Babcock and A.C. Krey.-New York: Columbia University Press, 1943.



ISBN 978-9950-383-00-5
9 789950 383005
jundi46@yahoo.com